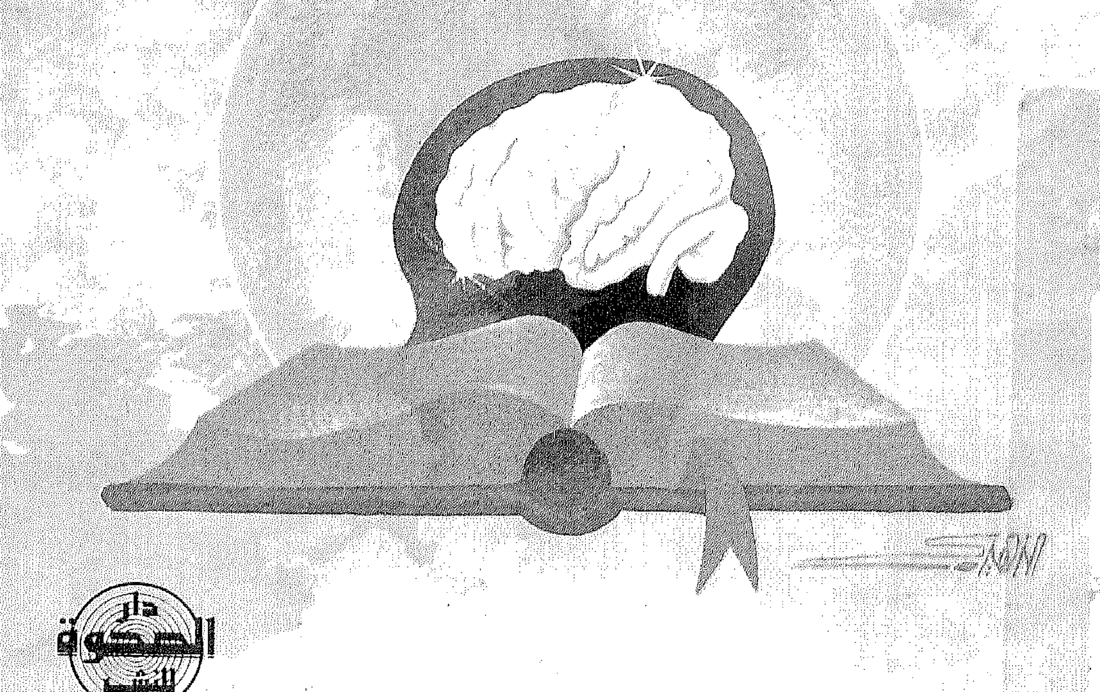
ثوابت ضرورية

فى فقه الصحوة الإسلامية

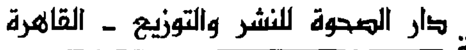
د. عبدالحليم عويس





ثوابت ضرورية
فى فقه الصحوة الإسلامية

الطبعة الأولى :١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

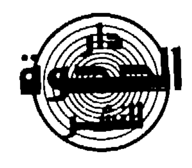

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

الإدارة: ٧ ش السراى - أول المنيل ت. فاكس: ٩٨٧٩٢٤

الفرع: حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

د. عبدالحليم عويس

ثوابت ضرورية
فى فقه الصحوة الإسلامية




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتحدث المنافقون كثيرا فى عصرنا عن الثابت و المتحول ... و هم يكتبون الدراسات و المقالات و الرسائل الجامعية بهدف مسبق ، هو أن يثبتوا أنه لا ثابت فى هذه الحياة ، فكل شئ متغير..

- لا عقيدة ثابتة
- لا شريعة ثابتة
- لا أخلاق ثابتة
- لا وحى ... و لا روح .. و لا ضمير.. و لا لغة قرآنية ثابتة.. إن كل المفاهيم نسبية ، و هذه البشرية أكذوبة كبرى تخضع لتحولات جذرية من شمبانزى الى قردة الى إنسان .. و بالعكس!!

فما عليك إلا أن تركض مسرعا بأقصى سرعة فى الطريق، متجاوزا شارات المرور الحمراء ، و معالم الطريق البيضاء و السوداء ، أو التى نسميها شرعا الحلال و الحرام..

فامض فى طريقك ماكرا متسولا بائعا للكلمة و لضميرك و وطنك و شرفك، وارتع من خمور الحانات، و بائعات الهوى!!

- فما دمت متحولا - و لاثوابت - فتحول قبل أن يحول حولك، و تذهب الى رمسك حيث العدم و التحول.. فلا حساب ثمة و لا

عقاب، فقد كنا فى دنيا فانية متحولة.. نعيش جملة غير مفيدة ، يكرم فيها الجبابرة الطغاة من أمثال لينين و ستالين و عبدالناصر، و يعذب الأشراف المخلصون و يلاحقون .. و إذا حافظوا على الصلوات فى المساجد فى بعض البلاد العربية قيل عنهم : إنهم متطرفون.. !!

- ألا ترى أن القول بالتحول و النسبى أجدى و أنفع من القول بالمطلق و الثابت..وما يتبعهما من ثواب و عقاب؟ !!

ذاك منطق المنافقين ... الذين زين لهم الشيطان أعمالهم و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا... بل يحسبون أنفسهم عقلاء المسلمين .

إنهم الذين حكى الله أقوالهم التى سيقولونها يوم القيامة للمؤمنين مكرهين، و هم يظنون أنهم ما داموا قد خدعوا الناس فى الدنيا بإسلام قولى شكلى لا حقيقة فيه سيخدعون الله يوم القيامة ... كلا.. فليس فى هذا اليوم تمويه و لا خداع... أجل : إنهم الذين يقول الله عنهم : "يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة و ظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى، و لكنكم فتنتم أنفسكم و تربصتم و ارتبتم و غرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله و غركم

بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية و لا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم و بئس المصير" (الحديد: ١٣-١٥).

إن كل شيكاتكم التى أخذتموها من أرصدة الماركسية و العلمانية و التنصير لا تصلح فدية فى هذا اليوم.. لأن عالم الرشاوى قد انتهى.. و الملك كله اليوم لله، فذوقوا جزاء وأدكم لعقولكم ، واتباعكم لشهواتكم، و افترائكم على خالق السموات و الأرض، بأنه خلق هذه الدنيا عبثا ... و كأنكم لم تقرأوا ما ورد فى كتابه الكريم:

"ربنا ما خلقت هذا باطلا... سبحانك" (آل عمران : ١٩١) .

" لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق و لكم الويل مما تصفون" (الأنبياء : ١٧-١٨)

لقد رميتم الذين دعوكم الى (الثوابت) بقذائف باطلة و اتخذتموهم سخريا فرميتموهم بالرجعية و التخلف و الجمود و غيبوبة العقل... و حتى التائبون و التائبات من الممثلين و الممثلات افتريتم عليهم و دعوتموهم الى الثبات على الباطل و العودة الى جهنم .. فاثبتوا أنتم هنا فى جهنم .. فلا تحول هنا و لا تبدل .. فأنتم – يا أعداء الوحى و ثوابته و قواعده الإيمانية – "فى جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار و هم فيها كالحون" (المؤمنون : ١٠٣)

و هنا فى هذه اللحظة يسقط الجدل و الحوار الذى ألفوه و هم يضمرون الثبات على الباطل:

- "اخسئوا فيها و لا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا و ارحمنا و أنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون. إنى جزيتهم اليوم بما صبروا. أنهم هم الفائزون" (المؤمنون : ١١١)

-"أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم الينا لا ترجعون" (المؤمنون: ١١٥)

فبئس ظنكم بالله ، و بئس كذبكم عليه.. فذوقوا جزاء فلسفتكم و علمانيتكم و ضلالكم !!

* * *

إن الحياة البشرية بلا ثوابت تحدد معالم الطريق و تلتف حولها المتحولات و المتغيرات غابة يعيش فيها وحوش... و لقد تواترت وقائع فى الصحف - بما لم يعد فى حاجة الى دليل - تؤكد أن العقل وحده لا يصلح للتشريع و لا قيادة الحياة ، فها هى الكنيسة السويدية تزوج رجلا لرجل ، و ها هم الشواذ جنسيا يحصلون على حقوق قانونية و برلمانية، و ها هو الزنا تعج به أرقى البلاد مدنية و أكثرها إنتاجا و اختراعا و رفاهية..و مع أنهم يكتبون أروع التقارير الطبية و الاجتماعية عن أضرار الزنا

و الشـذوذ والخمـور، فـإنهم يعتـبرون ممارسـتها مـن الحقـوق و الحريات الشخصية!!

– و متى وقف العقل المسلم ضد اختراع بناء أو تقدم تكنولوجـى أو إنسانى هادف!!

– إن هـذا العقل نفسـه هـو الـذى أخـذ بيـد البشـرية الـى العلـوم و المعارف، و سطعت شمس الله – بجهوده – على الغـرب فـى كل المعـارف لقـرون طويلــة .. و علمــاء الإســلام الحقيقيـون يؤمنون و يفتون بأن تقـدم المسـلمين فـى كـل فـروع التكنولوجيـا و الطب و الإدارة و الاقتصاد فرض كفاية تأثم الأمة كلها إن لـم يقم به البعض..!!

– فمتى وقف المسلمون إذن ضـد العلـم النـافع لا الـترف الثقـافى المبتذل الذى يسىء الى ذاتنا و قيمنا الحضـارية !!

– و هل من الضـــرورى أن نـأخذ مـن أوربـا الشـذوذ و الخمـور و الزنـا مع التكنولوجيا.. ألا توجد تكنولوجيا بلا دعـارة !!

– بل إن هؤلاء العلمانيين كذابون .. حتـى علـى أوربـا ، فهـم لا يركـزون فــى النقـل عــن أوربــا إلا علــى إفرازاتهــا القـذرة ، و يتركون المساحة الإيجابية الطيبة فلا ينقلون عنها شيئا .. و لا يصورونها لشبابنا.. و قد عاش لويس عوض يدعو المسلمين الى العكـوف علـى قـاذورات أوربـا الفنيـة، و أسـاطيرها اليونانيـة..

و يبعدها عن ترجمة العلوم و التكنولوجيا .. فكان كسلامة موسى فى غش المسلمين حذوك النعل بالنعل!!

* * *

و نحن هنا - متخلصين من الهزيمة النفسية و الفكرية واثقين فى ديننا - نضع الوحى فى مكانه و العقل فى مكانه ، و نقدم لشباب الصحوة الإسلامية الواعدة مفاهيم منضبطة عن عدد من الثوابت الضرورية التى تحتاج الى تعميق جذورها فى الأعماق، و عدم المساومة عليها.. و لو كره المنافقون. و السلام على من اتبع الهدى.

نظام الدين غرب / دلهى

فجر الجمعة الرابع عشر من نوفمبر ١٩٩٢ **د/ عبدالحليم عويس**

الوحى قبل العقل

و درء التعارض بين الثابت و المتحول

فى عصور الألق الإسلامى كانت الحدود واضحة بين المنطلقات الثابتة و التصورات الإسلامية المتجددة ... و لم يكن هذا الخلط – و هذا الصراع القائم عليه – قد انتشرا بين المسلمين ...

– كانت قضايا الإيمان تتجه الى مجراها الطبيعي كما تتجه المياه العذبة الى نهرها الصافى ...

– وكانت قضايا العقل تتجه الى بحرها أو محيطها فتلتقى مع قضايا الإيمان متعاونة معها مؤكدة لها، لكن ، مع ذلك ، كان بينها و بين قضايا الإيمان (برزخ لا يبغيان)... !!

– فماذا حدث – بعد ذلك – حتى أصبح بعض المسلمين يعتدى على أخص خصائص الإسلام ، و هو مزجه بين الإيمان و العقل فى تناغم و انسجام.. بحيث يستحيل معه "تعارض النقل و العقل" ؟... ماذا حدث حتى يزعم بعضهم أن العقل (أولا) ... و يزعم آخرون أن العقل (ثانيا).

– و ليس فى القضية (أولا) و لا (ثانيا) ... فالعقل الرشيد ابن شرعي للوحى الصحيح.. و من أبرز مهام الوحى تكوين العقل

بعيدًا عن التقليد و التعصب و الجزئية و العمى و الجمود و استلاب الغرائز والضلال، و تحكم الهوى و الأثرة و العنصرية و التحيز و الجهل، و غيرها من صور الضغط و التوجيه التى تمنع العقل أن يرى الصورة كلها، و أن يضع الأمور فى نصابها، و أن ينتهى الى الحكمة الراشدة والرأى الدقيق المحيط السديد.!!

* * *

و كان بعض المعتزلة و الفلاسفة من أوائل من خلطوا فى هذه القضية، و كان لهم بعض العذر فى ذلك؛ إذ كانوا يواجهون مرحلة حرجة انتشرت فيها الوثنيات و الفلسفات القائمة على التشكيك بتأثير حركة الترجمة من اليونانية و وثنياتها الى العربية، و هى حركة ذات تأثير ضار، إذ كان الصحيح والمعقول أن تكون الترجمة - فى مجال التصورات العقدية و الإنسانية - من العربية و إسلامها العظيم الى اللغات الأخرى.. فعقيدتنا و تصوراتنا العقدية التوحيدية هى الأعلى و الأولى بالانتشار، و من واجب العالم أن يجعل عقيدتنا مقياس الصحة و السلامة، و على أصحاب الأديان و الفلسفات أن يفلسفوا أفكارهم لتلتقى مع أفكارنا ... و ليس العكس ...(!!) فالذى حدث فى حركة الترجمة للأفكار والتصورات أن معظم فلاسفتنا و بعض المعتزلة - إن لم يكن أكثرهم - قد وقفوا

موقف الدفاع ... وراحوا يبررون ، و يلفقون ، و يدافعون؛ حتى يجدوا جسورا بين بعض التصورات الإسلامية و بين فلسفات أرسطو و أفلاطون و أفلوطين و غيرهم...

و كان الأزكى أن نقدم – نحن المسلمين- بكل اللغات – عقيدتنا الإسلامية و نظرتنا للكون و الإنسان، و خالق الكون و الإنسان... و بالتالى نتخذ موقف الهجوم، و تجد العقائد الأخرى نفسها مضطرة لفهمنا و اكتشاف حقائق الإسلام العقدية و أصوله التشريعية...

– و ما وقع فيه أكثر المعتزلة و الفلاسفة فى القديم و قع فيه كثير من المصلحين الذين واجهوا الحضارة الأوربية الحديثة بموقف انهزامى تلفيقى، و حاولوا جاهدين إخضاع حقائق الإسلام المتصلة بالكون و الإنسان، و بعض القوانين التى تحكمها – لمقولات العلم الأوربي و نظرياته الكثيرة التقلب و التطور!!!

* * *

– العقل ... (أولا) ... نعم ... لكن فى شئون الدنيا..

– والوحى ... (أولا) ... نعم ... لكن فى شئون الدين ، و كل ما ورد فيه نص قطعي الثبوت و الدلالة هو من شئون الدين، حتى و لو كان متصلا بالدنيا؛ لأن من البديهي – بمكان – أن

تتصل كثير من النصوص العبادية بشئون الدنيا ، فالروابط وثيقة بين ما هو دين و ما هو دنيا فى التصور الإسلامي!!

و نحن فى الإسلام نؤمن بأن "التفكير فريضة إسلامية" لكننا كذلك نؤمن بأن هذا التفكير – يجب أن يتجه الى دراسة الأنفس و الآفاق : "سنريهم آياتنا فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"(فصلت : ٥٣) لا أن يتجه الى التخرص فى أمور سمعية تتصل بذات الله و كنهه سبحانه و تعالى مما لا قبل للعقل به ، و هو منهج انحدر اليه – للأسف – مسلمون كثيرون يزعمون أنهم يخدمون العقيدة ، و هم فى الحقيقة يظلمون العقيدة و يمشون على أشواك مهلكة، و يجرون الأمة الى خلافات دامية لا سبيل الى حسمها، بل إنهم ليشتغلون بمعارك و قضايا لم يفكر فيها صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا تابعوه رضوان الله عليهم !!

و لو أن الصحابة – رضى الله عنهم – انشغلوا بها لتآكلوا داخليا، و لما جيشوا الجيوش و فتحوا الفتوحات و نشروا دين الله فى الآفاق !!

– إن ديننا واضح فى تعامله مع الطاقات البشرية كلها و من بينها العقل ... و قد وجه كل طاقة للتعامل مع النوافذ التى تستطيع التفاعل معها... فنافذة (الغيب) لا يقوى العقل على التحكم فيها ؛ لأنها منطقة تسليم و إيمان ، و فيها ما لا عين

رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر و لا عقله. و لا تستطيع مناهج العقل البشرى استيعابها، و قد لا تستطيع مفردات اللغات التعبير عنها ، كما لا يستطيع الإدراك العقلي إدراك كل جوانبها. و لهذا ، فالروح و الفطرة الإيمانية و الوجدان هي الطاقات المؤهلة للتفاعل مع الغيب... و لن يكون المسلم مسلما بالعقل وحده، بل الإيمان بالغيب أساس من أسس العقيدة : "الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون " (البقرة: ٣) ... و سواء أدرك العقل حكمة الغيب و أهمية الغيب، و دور الغيب فى تحقيق العدل الإنسانى، و فى تحقيق "منطقية" وجودنا فى هذا العالم المضطرب ظاهرا، ... سواء أدرك العقل هذا أو عجز عن إدراك حكمة بعض الغيب، فإن عدم إدراكه لحكمة الغيب لا يعنى عدم وجود الغيب... وهناك ملايين تموت فى بلادنا و هى لم تزر اليابان أو أمريكا أو استراليا... لكنها تؤمن يقينا بوجودها، و بخصائصها الجغرافية و الحضارية!!

* * *

و متى صح عن الدينِ شئ بخبر متواتر أو آحاد صحيح فلا يجوز إلغاؤه بالعقل...

و لا يعارض الثابت عن الله بالعقل... بل يواجه النقل بالنقل، و يجمع الصحيح الى الصحيح ، لتكتمل الصورة ، أو ليعاد

بالحديث المرتبط بموقف أو واقعة الى الحديث الذى يضع قواعد تشريعية ذات صفات عمومية أو قواعدية...!!

و كل علماء الإسلام الواعين فى القديم و الحديث قد أوجبوا الأخذ بخبر الآحاد الثابت من حديث رسول الله ... و ما وقفوا عند حديث منه إلا اعتمادا على حديث آخر أو آية قرآنية ... و ليس اعتمادا على العقل...

و قد هدفوا من ذلك الى الاستنباط القائم على النصوص كلها، و هو منهج سديد و مطلوب، و ما هدفوا الى نقض قول ثبت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أو تعطيله...

و هذا هو منهج الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي نفسه ، مع أن بعضهم – سامحهم الله – يزعم أنه يرد أحاديث رسول الله بالعقل... و هو ما لا يمكن أن يقع فيه داعية مثله ... فمن المعروف لدى جميع الباحثين أنه قد وردت عن رسول الله أحاديث شريفة ثابتة لا يستطيع الوعى العلمي فى بعض القرون إدراك كل أبعادها... و بعض الأحاديث لم تدرك مراميها إلا فى العصر الحديث، و بعد التقدم العلمي الهائل...!!

* * *

و هناك ملحظ آخر جدير بالذكر هنا ، و هو أن أحاديث الرسول قد تعالج مواقف مختلفة و معقدة ، وما يصلح لحالة ، أو فى

موقف ، أو لقوم، قد لا يصلح فى حالة أخرى أو موقف آخر أو لأقوام آخرين...

- و بعض المسلمين عندما يصرون على رأى واحد يصادرون - من حيث لا يدرون - سعة الإسلام وتسامحه و صلاحيته لكل زمان و مكان ...

- فبعض الظروف الضاغطة قد تحيل المندوب إلى جائز، بل إلى مكروه إن كان فعله سيؤدى إلى ضرر أكبر من النفع الذى يعود منه.

- و على سبيل المثال فإن إعفاء اللحية (سواء كان واجبا أو مندوبا) [مع أنه فضيلة إسلامية وشعيرة إيمانية على كل حال] قد يصبح مكروها (أو حراما) إذا تحقق أن النظام السياسي الحاكم فى بعض البلاد سيؤذى الذى يعفى لحيته و يهينه و يدفع به إلى السجون و التضييق فى الرزق. و قد يكون من جراء إعفاء اللحية تشريد الولد و المرأة و تمزيق الأسر، و دمار مستقبل الأبناء...!!

- و نحن إذا أخذنا بهذا الفقه للأحكام ، فإن صدورنا قد تتسع لقبول أخبار تبدو لنا و كأنها متعارضة ... و لكنها تعالج - فى الحقيقة - مواقف مختلفة تتصل بأماكن مختلفة، أو عصور مختلفة، أو ظروف مختلفة!!

* * *

إن السؤال الذى يجب علينا أن نجيب عليه هنا هو:

متى استشرى هذا الجدل فى حضارتنا حول مكانة الوحى بالنسبة للعقل أو مكانة العقل بالنسبة للوحى؟

- إن البناء الإسلامي منذ قام و هو يتكئ على تشابك خيوط الوحى و العقل معا، فإذا كان الأساس وحيا، فإن طبيعة الوحى لم تكن من مواد مناقضة للعقل أو عسيرة الاستيعاب بالنسبة له. و ليس فى القرآن الكريم و لا فى سنة الرسول صلى الله عليه و سلم الصحيحة ما يتناقض مع العقل الصحيح، و أما الفروع فإنها و إن رشحت بالوحى إلا أن امتداد العقل فيها فسيح و كبير!!

و فى ضوء هذا نقول : إن علاقة الوحى بالعقل لم تكن مطروحة فى عصر الرسالة أصلا ؛ لأن الصحابة رضى الله عنهم - و هم أصحاب عقول صافية نقية - لم يكتشفوا تناقضا بين حقائق الإسلام و الفطرة و العقل و المبادئ البسيطة التى تعارف عليها الوعى الإنساني. و قد كان الصحابة مشغولين بتغيير أنفسهم و تغيير العالم، و لم يكونوا مشغولين بفلسفة الأشياء و فلسفة العالم، و إغراق أنفسهم فى متاهات جدلية شبيهة بمتاهات عصور السفسطة الجدلية!!

إننى أتذكر الآن كم هـو كثير جـدا عـدد تلـك الكتـب التـى كتبهـا الماركسيون و الاشتراكيون دفاعا عن منطقية النظرية الشـيوعية و معقوليتها، بل و حتميتها العقلية و العلمية..(!!)

و قد انخدع بهذه الكتب مئات الملايين من البشر، و قـامت علـى أساسـها الفكرى (المعقــول ..) دول و حكومــات . لكــن لأن (معقوليتها) لم تقم على ثوابت فطرية منسجمة مع الكل الإنســانى الذى تشكله جميع طاقات الإنسان،·فسرعان ما سقطت بعد نصـف قرن من التجربة القاتلة!!

- لقد ضخمت الشيوعية جانبا واحدا ، و بالتالى تضاءلت لدرجة شبه العـدم جوانــب أخـرى أساسـية و ضروريــة فــى الكيــان الإنسانى، و لا يعقل الكيان الإنسانى بدونها..

- فالمعقولية التى قد ينبهر بها العقل قد لا تصمد للبقاء فى إطـار الوعـى الإنسـانى الموضـوعـى الـذى ينسـجم مـع كـل الطـاقـات و يحسن التفاعل معها..

و الخطـورة كامنـة فـى سـرعة الانبهـار و سـرعة الحكـم بعـدم معقولية الشئ؛ لمجرد أن عقل فرد أو عقل جماعـة - خضوعـا لبيئــة أو أوضــاع معينــة - لــم يســتوعبا معقوليــة الحقــائق المطروحة!!

- إن بعـض مـا كـان علمـا فــى السـابق فـى مجـال الطـب أو الجغرافيا أو الفلك قد أصبح خرافة مضحكة فى عصرنا الحديث.

- و بعض ما هو موجود فى عصرنا مثل (الفاكسميلى) و (الطائرة) و"الكمبيوتر" و "الهاتف" كان خرافة غير معقولة فى الماضى..

لكن الإسلام واجه البشرية منذ البداية بالإمكانية العقلية الكاملة للإبداع، و كان حادث الإسراء و المعراج بداية تأكيد هذا الأساس. و بالتالى ، فلم يظهر فى عصور القوة الإسلامية ذلك التعارض الوهمى بين ما هو وحي و ما هو عقل، و لم يطرح استفهام حول أسبقية الوحى أو العقل، و مع أن الوحى كان السابق بيقين منذ علم الله آدم الأسماء كلها - إلا أنه - فى الإسلام بخاصة - لم يعقل تعارض الوحى مع العقل أبدا.

* * *

لقد حسم الإسلام الخصومة المصطنعة بين الدين و العقل، و حرر الإنسان من أزمة الصدام بين الدين و العلم. و لهذا فليس الإسلام فى حاجة الى العلمانية ، لأن الأسباب التى أدت الى العلمانية فى أوربا لا مكان لها فى الإسلام، و الزعم الشائع فى تاريخ الفكر الإنسانى بأن هناك صراعا مستمرا و تناقضا أبديا بين الدين و العقل أو بين الدين و العلم لا ينطبق بحال من الأحوال على الدين الإسلامى، فكلاهما - الدين و العقل - يشكلان فى الإسلام وحدة واحدة تتشابك أنسجتها تشابكا محكما.

- و قد كان لفكرة التوفيق و روح الاعتدال التى تنطوى عليها تعاليم الإسلام أثرها العظيم فى سريان هذه الروح. و انتشار هذه الفكرة فى الحضارة الإسلامية بصفة عامة و الثقافة الفلسفية بصفة خاصة. و لهذا رأينا الفلاسفة المسلمين يتجهون فى فلسفتهم الى تأكيد التوفيق بين الدين و الفلسفة ، و بيان توافق المصدرين - مصدر الدين و مصدر الفلسفة - فى المعرفة و الوصول الى الحقيقة. و قد اتخذ التوفيق لديهم صورا عديدة (١) (هذا مع اختلافنا مع بعض مناهج ما يسمى بالفلسفة الإسلامية) .

- فالكندي (ت ٢٥٢هـ -٨٦٥م)، الذى عرف الفلسفة بأنها علم الأشياء بحقائقها، يرى أنها لا يمكن أن تتناقض إطلاقا مع الدين، فغايتهما واحدة.

- و يرى الفارابي (ت ٣٣٩هـ - ٩٥٠م) أن موضوعات الدين و موضوعات الفلسفة واحدة ، فكلاهما يعطى المبادئ القصوى للموجودات. فإنهما يعطيان علم المبدأ الأول و السبب الأول للموجودات، و يعطيان الغاية القصوى التى لأجلها كون الإنسان و هى (السعادة القصوى). و الفلسفة الصحيحة لا تتناقض مع الدين الصحيح، فإن بدا هناك بعض النفور أو التناقض بين الطرفين فما ذلك إلا لأن النظام الفلسفي الذى تناقض مع الدين

يعتبر نظاما واهيا لم تكتمل فيه البراهين المؤدية إلى اليقين. فالحقيقة لدى الفارابي واحدة و لكن الطريق إليها متعدد. (٢)

- و قد ركز ابن مسكويه (ت ٤٢١هـ - ١٠٣٠م) على الغاية. و لهذا اهتم بالتوفيق بين غاية كل من الأخلاق - و هى فرع من فروع الفلسفة - و الدين من حيث أن كلا منهما يهدف إلى سعادة الإنسان. و كذلك اهتم ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) بالمعنى العملي لكل من الفلسفة و الدين و ذهب إلى أن غرضهما هو إصلاح النفس و أنه لا خلاف بين الفلسفة و الشريعة فى ذلك.

- و يرى ابن سينا (ت ٤٢٨هـ - ١٠٣٦م) أنه لا يوجد فى أقسام الحكمة (أى الفلسفة) ما يخالف الدين أو يتعارض معه. و يرجع ضلال أدعياء الفلسفة عن منهاج الشرع إلى قصور فى تفكيرهم و عجز فى أفهامهم. و فى ذلك يقول : "لقد ظهر أنه ليس شئ منها (أى الفلسفة) ما يشتمل على ما يخالف الشرع، فإن الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع إنما يضلون من تلقاء أنفسهم و من عجزهم و تقصيرهم لا أن الصناعة نفسها توجبه، فإنها بريئة منهم".

- أما الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ -١١١١م) فقد حرص على ضرورة الحفاظ على وحدة العقل و الدين و إن كان لم يذكر الفلسفة فى هذا الصدد باللفظ. فالإنسان - كما يقول - لا يستطيع

أن يستغنى عن الدين أو العقل. فالعقل كالأساس و الديـن كالبنـاء و لا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر، فلا نفع فى أســاس بـدون بناء، و لا ثبات لبناء بدون أســاس. و لذلـك يـرى الغزالـي أنهمـا متحـدان اتحـادا لا يمكـن فصلـه، و مـن يجـرؤ علـى تعطيـل أى منهما فهو - فى رأى الغزالى - إما جاهل أو مغرور. (٣)

- و قد بين ابن طفيل (ت٥٨١هـ - ١١٨٥م) فى قصته الفلسـفية المشهورة (حي بـن يقظـان) كيـف يسـتطيع الإنسـان عـن طريـق عقله و دون معونــة مـن الخـارج أن يتوصـل إلـى معرفـة العـالم العلوى و يهتدى إلى معرفة الله و خلود النفس، و أن ما يتوصـل إليه من معارف لا يتناقض مع مقررات الدين.

- أما ابن رشد فقد تناول بالمقارنة العامة الخطوط الأساسية لكـل من الدين و الفلسـفة رغم اختـلاف منهجيهمـا، و بيـن فـى كتابـه (فصل المقال) اتفاق الديـن و الفلسـفة قـائلا : إن الحـق لا يضـاد الحق بل يوافقه و يشهد له. وقال أيضـا : إن الحكمـة (أى الفلسفة) هـى صـاحبـة الشـريعة و الأخـت الرضيعـة و همـا المصـطحبتـان بالطبع المتحابتان بالجوهر و الغريزة.(٤)

* * *

إن من المعقول - بداهة - أن الوحى قد يـأتى بـأمور عقديـة أو تشريعية قد تفوق استيعاب العقل (فردا أو جماعة) فى مرحلة من المراحل أو ظرف من الظروف العقلية...

وليس من حق عقل مسلم أن يرفض الوحى الثابت لأنه لم يفقهه أو يستوعبه، و إنما الواجب عليه أن يعيد الأمور إلى قواعدها الكلية (المعقولة) و أن ينتظر حتى يبلغ العقل رشده و يتمكن من استيعاب الفروع التى استعصت على عقله.

وما استشرت جرأة بعض المسلمين على النصوص و تقديم العقل عليها إلا فى تلك الفترات التى ظهر فيها وضع الحديث، و انتشر فيها - بعد ذلك - كم هائل من الأحاديث الموضوعة التى يستحيل أن يقبلها العقل، و التى تتناقض مفاهيمها مع كليات الإسلام العامة و مقاصده الثابتة... و قد كان من خصائص هذه الفترات شيوع الضعف فى الدين و العقل معا !!

* * *

و عندما التقى المسلمون بالحضارة الأوربية بعد سبات استغرق أكثر من قرنين كانوا فى مرحلة من أسوأ مراحل تخلفهم. و قد ظهر لهم الفرق الواضح بين واقعهم المتخلف و بين التطور العلمي الكبير الذى أفرزته الحضارة الأوربية... و قد كان الحل أن يبدأوا بنقد واقعهم و محاكمته إلى الإسلام الصحيح، فلا علاقة للإسلام الصحيح بتخلف المسلمين و لا بفقرهم أو انحطاطهم العقلى أو الأخلاقى. لكن بعض المفكرين قد بدأوا بمحاكمة الإسلام نفسه، و كأن اللادينية و البوذية اللتين تحكمان اليابان هما صانعة حضارتها... و من الطريف أن الإمبراطور

(هيروهيتو) بطل هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية، و الذى فرض عليها الاستسلام فى أغسطس ١٩٤٥م هو نفسه بطل الخروج باليابان من المحنة، و الصعود باليابان إلى مستوى الدول العظمى علميا و تقنيا و اقتصاديا...

و قد ملكت الهند الذرة و الطائرة و هى تعبد البقر و عدة آلاف من الأشجار و الحيوانات و الطيور و الأوهام...

و علمانية الغرب و ماديته و البقايا الهشة من النصرانية لم تحل دون تقدم أمريكا و أوروبا تقنيا و فنيا و اقتصاديا...

و يكاد يسيطر على اقتصاد العالم عبدة المال و مقدسو خرافات التوراة .. هؤلاء اليهود الذين لا يزيد عددهم عن خمسة و عشرين مليونا.

فلماذا يراد من الإسلام – وحده – أن ينهزم و أن يغير جلده، و يؤول نصوصه، لكى ينسجم مع فرضيات و نظريات تتغير من حقبة إلى حقبة ؟ !!

– و حاشا الإسلام أن يناقض أمرا وصل إلى درجة الحقيقة العلمية اليقينية.

– و كيف ذلك و هو الدين الوحيد الذى فتح كل الآفاق أمام العلم النظري و التطبيقي و جعله من مؤكدات الدين و أدلة أحقيته !!

"سنريهم آياتنا فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" (فصلت : ٥٣)

- و كيف يراد منا وحدنا - نحن المسلمين - بأن نؤمن بعدم وجود المعجزات و الخوارق، و أنها جزء من القوانين الطبيعية بينما لا يوجد نصراني غير ملحد لا يؤمن بالخوارق بالنسبة لعيسى المسيح عليه السلام، بينما يؤمن اليهود كذلك بالمعجزات التى أيد الله بها موسى - و نحن المسلمين قبل اليهود و النصارى نؤمن بالمعجزات التى أجراها الله على يد موسى و عيسى و كل الأنبياء عليهم السلام.

فكيف يأتى مسلم كالشيخ محمد رشيد رضا و هو من هو فى فضله و علمه ليقول للمسلمين فى مرحلة الانهزام النفسى و الفكرى أمام الزحف الأوربى: إن معنى قوله تعالى "و انشق القمر".... "ظهر الحق" ؟!

و لماذا لا ينشق القمر معجزة للرسول -محمد صلى الله عليه و سلم - فعلا ؟ وكيف يقول أستاذه الفاضل الشيخ محمد عبده : إن "السجيل" فى قوله تعالى : "ترميهم بحجارة من سجيل" تعنى "الجراثيم" ؟ .... و لماذا لا تكون حصوات خارقة للعادة أرسلها الله بقدرته فقضت على الكافرين فورا ؟ و هل يعجز الله عن ذلك ؟

و لا نطيل فى تقديم صور من هذه الانهزامية فى تأويل القرآن، فهى معروفة، و قد اشتهر بها أعلام مثل محمد فريد وجدي و طنطاوي جوهري - رحمهما الله...!!

و هذه الانهزامية لم تخدم الوحي و لا العقل ، لأن العقل نفسه يدرك - أو يجب أن يدرك - أن خالق السنن و القوانين هو وحده القادر على خرقها. و قدرته على خرقها تعنى أن يكون هو صانعها و فوقها، و أنه يحكمها و لا تحكمه ، و إنما تحكم عبيده و خلقه... أما عدم قدرته على خرقها فيعنى أن هذه القوانين فى مرتبة القدرة المطلقة، و أنه لا إله يحكمها ، و يبطل تأثيرها، تماما مثلما يقع تأثيرها بعونه و قدرته!!

• • •

وقد امتدت الانهزامية - بالتالى - إلى الأحاديث النبوية، وقد أراد بعضهم أن يعفى عقله من الإجهاد (و الاجتهاد) فأعطى نفسه حق رفض الحديث إذا كان خبر آحاد...

ومعنى هذا أنه يعطى نفسه حق إلغاء أكثر من ٨٥ فى المائة من أحاديث الرسول - عليه الصلوة و السلام - بمجرد اجتهاد عقله المحدود و إمكانات عصره المحدودة..

ومعنى هذا أيضا إمكان إلغاء التاريخ كله ، الإسلامي منه و غير الإسلامي ، لأن التاريخ البشري كله خبر آحاد...

و نضرب نموذجا لهذا الإنكار الغريب .. فمع أنه قد ورد فى نزول عيسى عليه السلام أحاديث يعضد بعضها بعضا و تبلغ سبعين حديثا على ما نقله العلامة زاهد الكوثري عن المحدث الكشميري، فإن هؤلاء يصرون على إنكار نزول المسيح. و فى

هذا يقول الشيخ محمود شلتوت بعد أن أنكر رفع عيسى إلى السماء حيا: " إنه لا محل له بعد سقوط رفعه حيا" ...

ويعلق على هذا المنهج الغريب – بعقلية علمية رصينة – الشيخ مصطفى صبرى (رحمه الله) فيقول: "سبعون حديثا مرويا عن الرسول صلى الله عليه و سلم بألسنة رواة مختلفين من الصحابة و التابعين و من بعدهم، لا بد و أن تكون لها قيمتها التى لا يكفى لإسقاطها التعلل بأنها أخبار آحاد، فلو أتى بمثلها سندا لصحة خبر من الأخبار الواردة فى كتب التاريخ لكفى فى إفادة اليقين و زاد على الكفاية...

فما أسوأ هذه السمعة ... سمعة المؤلفين المسلمين عند المؤلفين المسلمين.! و بئست التهمة شبهة الكذب!

– نعم إن المؤلفين المسلمين مهما عظم شأنهم فلا ثقة بأمانة السلف منهم عند الخلف العصريين ، حتى إن الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يصح منها على تقدير مؤلف "حياة محمد" إلا واحد فى كل مائة و خمسين حديثا (كما ذكر هو أيضا)، فعلى هذا لا يوزن للأحاديث السبعين الواردة فى نزول عيسى إلا أقل من نصف قيمة حديث واحد صحيح".(٥)

* * *

فكيف وصل الأمر ببعض المجتهدين الى هذه الدرجة ؟ و كيف وصل الأمر برجل مثل الأستاذ محمد حسين هيكل (مؤلف حياة

محمد) أنه لا يجد من العلماء من يصوبون صوابه و يردون خطأه و خطأ منهجه ، بل يجد إشادة عامة تكاد تغطى على خطأ المنهج و تستر عواره؟

لقد انطلق هؤلاء الذين ذابوا في العقل على حساب الوحى من انهزامية كبيرة... و قد أرادوا تطويع الوحى لتقلبات العقل الفردي فى العصور المختلفة، و بين الأفراد أو الأقوام أو الثقافات المختلفة.. وهذا أخطر شئ !!

- إنه بدلا من أن يبقى الوحى معالم ثابتة وضيئة لكل العصور فإنه يصبح شارات هامشية يحرفها عن مواضعها من يريد فى كل عصر، و يخضعها لخريطته الخاصة و معالمه المنهجية المسبقة كل من تتحكم فيه فلسفات أو مناهج مادية أو صوفية أو شخصية أو سياسية!!

- إن رسالة الوحى فى التاريخ كله أن يواجه العصور بالثوابت ... و مع تعقد الحياة و تجدد المشكلات توضع ثوابت إضافية لكل مساحة حضارية تضاف إلى رقعة الحياة الإنسانية ... فإذا كان الاقتصاد والنظام المالي بدائيا فى العصور السابقة للرسالة الإسلامية فإن الأمر لم يكن يحتاج إلا إلى معالم قليلة .. و كذلك الأمر فى النظام الاجتماعي و الأسري و العلاقات الدولية ... فلما جاء الإسلام فى مرحلة نضوج العقل البشري و بداية الدخول فى مراحل حضارية معقدة جاء الوحى الكريم

بمعالم تستوعب المساحة الجديدة و تقدر على مواجهة مشكلاتها بما يحفظ الصلة بين الله و المخلوق، و بما يحفظ الحياة المركبة الجديدة من أن تغوص فى وحل الحرام و الفوضى و بالتالى تدخل فى ظلمات المادية و الحيوانية و تضييع (إنسانية الإنسان) حسب تعبير (رينيه دوبو) أو يصبح (الإنسان ذلك المجهول) حسب تعبير (إليكسس كاريل) أو يصعد بجسمه إلى الفضاء البعيد بينما تغوص أقدامه (عقله و روحه) فى الوحل!!!

* * *

ولأن الإسلام (دين) ، و لأنه فى وظيفته الأساسية جاء ليضع الثوابت التى تحقق الصلة بين الإنسان والله وبين الإنسان و الإنسان ، فإنه – دائما و فى كل العصور – يجعل الثوابت قبل المتحركات ، ويضع الوحى قبل العقل .. متى صح الوحى و ثبتت حقائقه .. و يرفع العقل إلى المرتبة الثانية الرائعة الفسيحة لأنه يشغل المساحة المتجددة الأكبر...!

و السائق الماهر هو الذى يستوعب ثوابت الطريق لا الذى يتجاوزها .. و التزامه بها لا يعنى حرمانه من صفات المهارة و الإبداع . بل إنه لن يبرع – كما لن يبدع كل صاحب علم أو صناعة أو حرفة أو فن – إلا إذا كان له منهج و ثوابت.

– و من الخلل فى الترتيب وضع المتغيرات قبل الثوابت، و وضع الفروع قبل الأصول ، و النظر إلى الأغصان على أنها

أسبق من الجذور.. و من أكبر الخلل و أسوأ ما يصيب البشرية أن يقال : إن عقل المخلوق يسبق وحى الخالق.. أو يقال : إن أسبقية الوحى تكبيل للعقل.. فكأنه إما أن يمضى العقل فى الطريق بلا ثوابت، و إما أن يخضع الوحى لأهوائه و ظروفه... و إلا فلن يكون عقلا.. إنه قول لا يقول به عقل... و لا وحى !!

هوامش الموضوع :

(١) د/ محمود حمدى زقزوق : **دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفي** – دراسة بالعدد الثالث من حولية كلية الشريعة بقطر ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م (بتصرف فى تنسيق الأفكار).

(٢) المرجع السابق: المكان نفسه.

(٣) المرجع السابق (بتصرف)

(٤) المرجع السابق (بتصرف)

(٥) **مختصر موقف العقل و العلم و العالم من رب العالمين**، طبع دار السلام (القاهرة ١٤٠٧) (وقد بسط رده فى صفحات كثيرة و فى المقدمة جزاه الله خيرا.. والرد محصور فى الصفحات الثلاثين الأولى بعد المقدمة التى كتبها للمختصر).



العمل لتطبيق الشريعة

فرض عين على جيل الصحوة

لم يكن هناك بد من أن ترتبط الصحوة الإسلامية بالدعوة إلى تطبيق الشريعة ، ذلك لأنها – فى محتواها الأخير – (صحوة إسلامية) و ليست مجرد صحوة تائهة فى الصحراء تبحث عن أى طريق ..

وكيف تعتبر إسلامية إذا لم يكن جوهرها (شريعة إسلامية) و مهما التزمنا نحن المؤمنين بهذا الدين العظيم بالتسامح، و بالدعوة الحكيمة، و بإقامة الجسور بيننا و بين كل الناس ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أو نخفى أننا نرنو و نسعى لتطبيق شريعة الله... إنها حلمنا و هدفنا من كل كتاباتنا و نشاطاتنا.

والذين يتخيلون (صحوة إسلامية) لا تسعى لتطبيق الشريعة، إنما يخدعون أنفسهم و أمتهم ... فليس هناك (أمة إسلامية) بدون شريعة إسلامية. إنها فى هذه الحال أمة من ورق ، أو من عهن منفوش ، أو هى (صورة) تافهة، حتى و لو كانت صورة أسد – كما شبهها العلامة أبو الحسن الندوي. و أى طفل فى العالم

يستطيع أن يلعب بصورة الأسد، فهى وصورة العصفور عنده سواء.. ومع هذه الحقيقة التى تبدو بديهية من بديهيات الإسلام ، فليست هناك حقيقة تلقى عنتا و مقاومة من أعداء الإسلام، و من بعض المحسوبين عليه، مثلما تلقى هذه الحقيقة.

وقد يكون لدى أعداء الإسلام المبررات الحقيقية و الصحيحة لمقاومة تطبيق الشريعة. فهذا التطبيق سوف يضع قطار المسلمين فوق القضبان الصحيحة ، ليتجهوا الوجهة الصحيحة فى التاريخ. و سوف يقدمون النموذج الإنسانى و الأخلاقى للحياة، ذلك الذى تبحث عنه – لاهثة – إنسانية اليوم التائهة... فالشئ الطبيعى أن يحارب (أعداء الإسلام) – صليبيين و يهودا و شيوعيين و هنادكة – هذا البعث الإسلامى الذى يدعو الى تطبيق الشريعة و صياغة الحياة وفق مبادئها. و من ثم فلم اندهش عندما قرأت فى عدد مجلة **المجلة** (اللندنية) – الصادر فى العاشر من شعبان ١٤٠٤ – تصريحا لألكسندر هيج، الوزير السابق للخارجية الأمريكية، أن التطرف الإسلامى أخطر على العرب من الشيوعية ثم فى الدرجة الثالثة (إسرائيل). و بالطبع يرى (هيج) و أمثاله أن أية مطالبة بتطبيق الشريعة هى تطرف.. و هذا بالطبع – أيضا – إيقاع بين حكام المسلمين و شعوبهم المسلمة الملحة على تطبيق الشريعة.

لكن كل شئ – فى رأيى – مقبول من الأعداء الصرحاء للإسلام عقيدة و شريعة و حضارة. أما أن يقاوم (تطبيق الشريعة) بعض من يصرون على أنهم مسلمون، و بعض من يعمدون الى (نسخ) أحكام الشريعة و إخضاعها لعقولهم البائسة و للأوضاع المعاصرة الحافلة بالانحرافات.. فهذا هو البلاء و الضياع الذى يجب أن تجند الأمة الإسلامية نفسها للتخلص منه. و على كل مسلم فى أى موقع التمهيد العاقل لتطبيق الشريعة و مقاومة كل فكر يحول أو يعوق هذا التطبيق، و فضح كل منافق خان دينه، و باع نفسه لحضارة أعدائنا.

إننا نريدها وقفة فكرية وحضارية عاقلة واعية، و لا نريدها مواجهة عجلة حادة عنيفة تضر أكثر مما تنفع. فليس بالاندفاعات الهائجة تنتصر العقائد أو تتغير النفوس أو تتسم التحولات الكبرى فى التاريخ. وكل المطلوب هو الحركة و المصارحة و الإصرار على الهدف، و الثقة فى أن وعد الله لن يتخلف : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين» .و فى هذا البحث الوجيز نوضح الصلة الوثيقة بين الصحوة الإسلامية و مطلب الأمة الإسلامية بتطبيق شريعة الله التى هى الجناح الثانى للإسلام، و نكشف أبعاد المعركة التى تدور بين جمهور الأمة ، وبين الذين خانوا أمتهم ، أو الذين

تنكبوا الطريق عن اجتهادات خاطئة، فوقعوا فريسة الضغوط الفكرية الأيديولوجية الوافدة..

الشريعة جاءت لتحكم و لم تأت عبثا

من البديهيات العقلية و النقلية - أن كل ما ورد فى القرآن - إنما جىء به ليصوغ حياة الناس، و ليهتدى الناس به، و لم يأت (فكرا محضا) و لا (ترفا) و لا (للسمر) و لا (للغناء) به .. فما كان الله ليعبث مع الخلق.. حاشاه سبحانه و تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

و القرآن و السنة الصحيحة هما المصدران الأساسيان اللذان لا ينطقان عن الهوى، و إنما هما وحى يوحى. و العمل بأوامرهما و اجتناب نواهيهما يمثل الترجمة الحية و التطبيق العملى لشريعة الإسلام التى لا يقوم الإسلام - فى هذه الحياة - إلا بها.

و شريعة هذا الدين هى دستوره و قانونه و صبغة الله التى أنزلها ليهتدى بها البشر فى دروب الحياة... و هذه الشريعة يتناغم فيها الثبات و التطور ... فكل ما ورد فيه نص هو (الثبات) ... و كل ما ترك الله التفصيل فيه هو (التطور) ... و هذه الشريعة واجبة التطبيق على كل المسلمين بدءا من الرسول صلى الله عليه و سلم و حتى آخر مسلم تقوم عليه

القيامة ، و لا عذر لمسلم إذا كان قادرا على الحياة فى ظلال هذه الشريعة و لم يسع للحصول على هذه الحياة ، فكيف الشأن بالذين بيدهم تطبيق هذه الشريعة على أنفسهم أو أسرهم أو مجتمعاتهم و ينصرفون عن ذلك الى مبادئ عاجزة صنعها بشر، و يريدون تطويع الشريعة للأوضاع الفاسدة،و ليس تقويم الأوضاع الفاسدة لكن تصبح صالحة...

و فى القرآن ترد آيات كريمة موجهة إلى الرسول عليه الصلاة و السلام تأمره باتباع هذه الشريعة و رفض اتباع الأهواء البشرية...

وكل ما وجه للرسول - ما لم يرد ما يخصصه له - هو أمر للأمة كلها رجالها و نسائها، حكامها و محكوميها...

تقول الآيات للرسول و للمسلمين من ورائه :

"ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا و إن الظالمين بعضهم أولياء بعض و الله ولى المتقين. هذا بصائر للناس و هدى و رحمة لقوم يوقنون". ثم تقول الآيات : "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، و أضله الله على علم ، و ختم على سمعه و قلبه ، و جعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون" (الجاثية : ١٨-٢٣). و قد أخبر الله تعالى عن نبيه بقوله : "و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى" (سورة

النجم). و قال : "و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا".

وقال : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول" (النساء : ٥٩).

و حذرنا من مخالفته فقال : "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم".

و فرض على المؤمنين طاعته لأنها من طاعة الله فقال : "من يطع الرسول فقد أطاع الله" (النساء : ٨٠).

و أخبر بأن ترك الفعل كفر أو ظلم أو فسق، فقال تعالى : "و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون". و قوله : "و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون". و قوله : "و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون". و قال : "و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم" (الأحزاب : ٣٦)..

فهذه الآيات توجب تطبيق الشريعة بصيغ مختلفة تسد كل أبواب الشك و التأويل.

* * *

و الذين يقاومون تطبيق الشريعة لا يمكن أن يكونوا مسلمين إذا كانوا واعين بما يفعلون. فهم - بسلوكهم هذا - يصفون الله سبحانه بالعجز عن الفهم للمشكلات المتجددة، و يفضلون عليه

تشريعا قاصرا محدودا كالتشـريعات البشـرية. و هـم - كذلـك - يكادون يحكمون بالإلغاء على كل القـرآن إذا مـا اعتمدنـا الـرأى القائل بأن كل القرآن تشريع. و علـى أقل تقديـر - و هـو تقديـر الغـزالى وابـن الـعربى - فـهـم يلغون خمسمائـة آيـة هـى آيـات الأحكام، وإذا كان (إلغاء) العمل بآية قرآنية صـريحة الدلالة نوعا من الكفر فبماذا نسمى إلغاء خمسمائة آية على أقل تقدير؟..

تطبيق الشريعة
صحوة لعلاج الأمراض الخلقية

لم تتواكب الدعوة الـى تطبيـق الشـريعة مـع الصـحـوة الإسـلامية عبثا أو مصـادفة. فالذى يعى المسـتوى الأخلاقـى الـذى انحـدرت اليه الأمة الإسلامية سوف يدرك كم كـان ضـروريـا - لـدى كـل المخلصين - أن تكون المطالبة بتطبيق الشريعة لعلاج الانحدار الأخلاقى عملا من أوجـب الضـرورات .. لقـد سـاد أمتنـا خـلال القرن الأخير - بتأثير الغزو الثقافى و التحلل الداخلى - فوضـى أخلاقيـة بحيث لـم تعـد هنـاك روابـط أخلاقيـة بيـن عنـاصـر المجتمـع... و قـد سـاعدت النظريـات الوافـدة علـى هـذا التفسـخ المشين.

و بعد أن أفلست - فى عصرنا الحديث - كل النظريات المستوردة والقوانين الوضعية وأصبح المسلمون - بل والبشرية كلها - على شفا جرف هار ، وانتشرت - فى ظل غيبة شريعة الله - كل الموبقات ، فأصبح بوسع شخص واحد (كما وقع فى بريطانيا ذات الشرطة الرهيبة) أن يقتل عشرين، أو أكثر ، و أصبح بعضهم يتباهى بأن هوايته قتل النساء أو الأطفال، و أصبحت للسرقة فى بلاد المسلمين - و فى غيرها - عصابات دولية منظمة قد تتعامل مع الشرطة - أحيانا - بشئ من التنسيق (و عدم الإحراج)، و أصبح رئيس دولة عربية عرف بقوته و جبروته عاجزا - باعتراف وزير داخليته - عن القضاء على (حي) من الأحياء المحلية بجامعة إسلامية عريقة، تباع فيه (المخدرات) على قارعة الطريق كما تباع الفواكه الشعبية.... و أصبح الموظف لا يعمل إلا وفق مزاجه الخاص، و على قدر (الراتب) الذى يتقاضاه من وجهة نظر تقييمه له ، و تفشت الرشاوى فأصبحت تطلب علنا ، بل أصبح بعض (المتطرفين) يحاول البحث عن فتاوى تجيز الرشوة حيث إن (الأجور) لا تكفى للحياة ، و أما الوساطة فهى قاعدة ثابتة من قواعد النظم البعيدة عن الإسلام، و بلغ السيل الزبى فى (السرقات الكبيرة) من شعوب ضعيفة مكافحة ، مع التستر عليها....!!

و أما الفحش فله - فى بعض المدن الإسلامية - شوارع و أحياء مشهورة ، و من وراء الفحش يثرى - بالملايين - عشرات من تجار الفاحشة ، سواء كانت فاحشة ظاهرة أو فاحشة تتستر بالفن الرخيص... و من خلف هذه الشوارع الحافلة بالبذخ و الفحش و الخمور تقبع ملايين تكافح من أجل الحصول على رغيف الخبز و على ضرورات الحياة...

أ فلا يحق للمسلمين فى كل قطر إسلامى العمل على تطبيق الشريعة - بعد أن أفلست أمامهم النظريات الوافدة ، وبعد أن منوا بكل الهزائم فى ظلال القوانين الوضعية التى يسهل -كل السهولة - النفاذ من ثغراتها لتحقيق كل الجرائم و حماية كل المجرمين ؟ !!

أجل ... إن الأمة الإسلامية - فى عصر الصحوة - تنادى من أعناقها و تستصرخ ولاة أمورها و مفكريها المخلصين - و ليس العملاء لحضارة أعدائنا بجناحيها الغربي و الشرقي الشيوعي... تناديهم و تستصرخهم أن يقودوها فى رحلة العودة إلى تطبيق الشريعة.. وأن يكونوا مخلصين فى تحقيق هذا المطلب المصيري مهما واجهتهم الضغوط الصليبية أو الصهيونية أو الشيوعية أو عملاء هذه التحديات... و إلا فإن المنحدر الأخلاقى الذى تعاورت على سوقنا إليه عوامل داخلية و خارجية سوف يصل بنا إلى أوخم العواقب.

و فى كل يوم تنقل (الصحافة) و تنقل (الشاشة المرئية)صورا من الانحطاط الأخلاقى تترك بصماتها على أجيالنا المسلمة ، و تقف الحكومات الإسلامية و كأنها عاجزة عن صد هذه الأوبئة الأخلاقية و القيم العلمانية (اللادينية) التى تدفع الى التفسخ و الإذلال ، و توجب على الأمة التى لا زال فيها نبض حياة أن تهب مدافعة عن أخلاقها و قيمها و أصالتها... و هكذا كان لزاما على الصحوة الإسلامية أن تضع الدفاع عن أخلاق الأمة فى أساسيات مهامها ، و أن يكون لها موقفها من ظاهرة التردى الأخلاقى.

- و كان (تطبيق الشريعة) هو أهم الأسلحة التى تمسكت بها الصحوة الإسلامية فى معركة إعادة هذه الأمة المسلمة الى سالف أخلاقها التى انتصرت بها ، و فتحت بها العالم.

الهجوم على الإسلام
أيقظ الشعور بضرورة تطبيق الشريعة

لقد كان شيئا أشبه بالخيال أن يجد المسلمون - و هم يقاومون الغزو الثقافى الأوربى - جماعات من المسلمين قد خانت دينها و انضمت الى صفوف الأعداء.... و قد لبسوا فى خيانتهم للإسلام أقنعة مختلفة ، فتارة يحاربون الشريعة بحجة أن الإسلام

عقيدة شخصية ، و أنه لا نظام فيه ، بل هو شأنه شأن أى دين يدع ما لقيصر لقيصر. و تارة يقولون بضرورة (التطور) - بدون ثوابت - أو يقولون بأن الإسلام مجرد كليات أقرب إلى المواعظ الأخلاقية، أو يشككون فى الأحاديث و قيمتها ، أو يقولون بأن العصر يوجب قصر هذه الأحكام على عصر السلف..... و هكذا تتنوع (الأقنعة) و الاتهامات منذ علي عبدالرازق و حتى حسين أحمد أمين.. و كلها تهدف الى (إلغاء الشريعة) و تحويل الإسلام الى عقيدة ميتة كالعقائد المنتشرة فى الأرض.. ومع كل ذلك فالواقع يشهد أن الشريعة الإسلامية وقفت - كما يراها أبناؤها و خصومها - شامخة قادرة على استيعاب كل مشكلات العصر.. متجاوزة كل مراحل التشكيك ، و الإرجاء ، و التعطيل التى يتعلل بها خصومها من الخارج والداخل.

و من هنا بدأ أعداء الشريعة يغيرون مواقعهم، و قسموا صفوفهم قسمين - قسما يحارب تطبيق الشريعة بوضوح شديد، ما دام تطبيق الشريعة قد أصبح مطروحا طرحا عمليا، بل بدأ تطبيقه فعلا فى بعض البلدان، و أصبح قاب قوسين أو أدنى فى بلدان أخرى. و هؤلاء معروفون ، سواء كانوا من القوى الخارجية المعادية للإسلام دينا و حضارة، صليبيين كانوا أو يهودا أو

وثنيين أو شيوعيين ظاهرين أو مستترين أم من عملاء هذه القوى الذين حاولوا إخفاء هويتهم لكن الأمة كشفتهم.

و قسما آخر يحارب تطبيق الشريعة بنفاق شديد.. و هذا الصنف هو الميكروب المؤذى الذى يدخل الى الأحشاء ، و يحاول أن يغزو العقول بمغالطاته المفضوحة، و بجرأته العمياء على دين الله و قوله فيه بالهوى. و يكاد هذا الصنف أن ينسخ شريعة الله، و أن يهدم قواعدها قاعدة قاعدة.. و هو - مع عدم تخصصه و مع انقطاع صلته بالشريعة - يمنح نفسه حق القول فيها أكثر مما يسمح للعلماء و المتخصصين الذين اتصلت كل حلقات حياتهم بالشريعة.. فهو وحده المجدد، و الفقيه ، و العصري...

و المهم أن هذين القسمين تصديا لتطبيق الشريعة، و كانا السبب المباشر فى إيقاظ الوعى العام لدى المطالبين بتطبيق الشريعة، من موقع الشعور بالغيرة و المسئولية.

تورط بعض المسلمين المثقفين فى الدعوة الى تعطيل الشريعة

لم تقف المأساة التى يعانيها المخلصون للإسلام و المطالبون بتطبيق الشريعة - عند حربهم الضروس مع خصوم الإسلام فى

الخارج ، و مع المنافقين في الداخل ، بل إن المأساة – في مرحلة الصحوة – قد امتدت لتشمل بعض المثقفين المسلمين الذين لا نكاد نشك في إخلاصهم... فهؤلاء – من منطلق الترف الفكرى و الوقوع تحت ضغط أيديولوجيات زاحفة – قد راحوا يبحثون عن تبريرات لإرجاء أو تعطيل تطبيق الشريعة. فتارة يقولون بضرورة بناء العقيدة و السكوت عن تطبيق الشريعة ، وتارة يقدمون مبررات أخرى للتعطيل ... و يعرف كل المسلمين أنه لا قيمة لتطبيق الشريعة بدون (عقيدة)...

لكن اعترافنا هذا لا يعني إرجاء تطبيق الشريعة بدعوى غرس العقيدة، فالحق أن تطبيق الشريعة هو دعم لغرس العقيدة ، و هو تهيئة لمناخ نظيف يساعد على السمو النفسي.. أما مفاسد البعد عن تطبيق الشريعة فلا يمكن أن تسمح بتكوين بناء عقدي سليم.. إنه لا يوجد مسلم ينكر قيمة العقيدة لكن الرسول عندما دخل المدينة طبق الشريعة فورا مواكبة للعقيدة... فمحذور (العقيدة) وهم شاع لدى كثيرين ... و هناك محذورات أخرى يطرحها الخائفون من تطبيق الشريعة.. و الجدير بالذكر أن أغلب الذين يدعون لتطبيق الشريعة الإسلامية – على امتداد العالم الإسلامى – يعرفون جيدا كل محاذير الطريق التى يروجها رافضو التطبيق سواء ما يتصل بالعقيدة أو غيرها.... إنهم يعرفون أن بعض الحكام قد يستغلون تطبيق الشريعة الإسلامية، للتخلص من

بعض خصومهم، أو للتنفير - بصورة مكرسة - من تطبيق الشريعة مستقبلا أو لاجتذاب الجماهير فى مرحلة احتياجهم اليهم... أو لغير ذلك، كما يقول هؤلاء ... و هم يعرفون تماما أن تطبيق الشريعة، بدون أرضية عقائدية بل و بدون مجتمع إسلامى، قد تكون مغامرة تسيء الى المستقبل الإسلامي كله، إذا كان هناك سوء نية...

- و هم يعرفون أن كثيرا من الحكام فى عالمنا الإسلامى يتوهمون أن مصالحهم تتعارض مع تطبيق الشريعة ، سواء فى مجال (تركيبة) أسلوبهم فى الحكم أو (تركيبة) انتماءاتهم الفكرية، أو (تركيبة) مشكلات بلادهم التى ربطوها بقوى خارجية... أول شروطها و ضغوطها أن تكتسح المفاهيم الإسلامية من الطريق.

- و هم يعرفون - أيضا - أن ثمة مذاهب و أفكارا و اتجاهات و مستحدثات و أقليات و أوضاعا فرضت نفسها ...و أصبحت ضغوطا لا بد أن ينظر اليها بعين الاعتبار عند التنادى بتطبيق الشريعة الإسلامية..

- و هم يعرفون - تمام المعرفة - أن (الإيمان وحده لا يعصم المجتمع) و أنه (ليس بالشريعة وحدها يقوم المجتمع الإسلامى)... كما يقول المترددون فى تطبيق الشريعة (!!)

- و نحن نقول لهؤلاء و لأمثالهم:

لقد خرج مذهب (مالك) إمام (أهل المدينة) و الحديث، النابع من أعمق أعماق الجزيرة.. خرج فسيطر على الشاطئ الآخر الأوربى ... و ذلك حين ساد الأندلس طيلة أيام الوجود الإسلامى بها و حين ساد الجناح المغربي للعالم الإسلامي: ليبيا، و تونس، و الجزائر، و مراكش ... و بقاعا أخرى فى العالم الإسلامي.

و من قلب الجزيرة العربية أيضا خرج الإمام الشافعي ... فلما رحل الى مصر استحدث آراء جديدة ما زالت كتب الفقه ترددها، فاصلة بين هاتين المرحلتين فى عملية المواجهة الحضارية التى تعرض لها الشافعي ... فهى حريصة على أن تقول : (قال الشافعى فى القديم) و أن تقول : (و قال الشافعى فى الجديد)...

و مئات من الشواهد تدل على أن هذه الشريعة قادرة على مواجهة عصرنا بكل مستحدثاته. و نحن نقول للذين يطالبون بإرجاء تطبيق الشريعة (ألف سنة) حتى يمكن غرس العقيدة - كأنكم ترون أن المسلمين الآن ليس لهم عقيدة... أى أنكم تكفرون المسلمين من حيث لا تدرون و كأنهم مثل أهل مكة قبل الإسلام.

و بصرف النظر عن هذه اللفتة التى يمكن أن ينشب حولها خلاف ، فالخطأ الآخر الذى لا يحمل خلافا هو أنهم ينسون أنه خلال الفترة المكية لم تكن (الشريعة) قد نزلت أصلا ... بل كان الأمر الذى تنزل من السماء هو أمر العقيدة فقط، و لو كانت ثمة

أمور شرعية قد نزلت ، لما جاز للمسلمين أن يجتهدوا فى إرجاء تنفيذها ... حتى ثبتت عقيدة بعضهم. و لقد كان بينهم مذبذبون دائما و تطبق عليهم الشريعة أيضا. فما ينزل من السماء واضحا لا يجوز أن يكون تطبيقه محل أخذ و رد ... و لو كان أمره يحتاج الى التدرج لفعله الشارع الحكيم من نفسه... و ذلك مثلما حدث فى أمر الخمر- مثلا..

و ثمة أمر ثالث خطير لم يحلله هؤلاء المؤرخون الذين يستلهمون من الفترة المكية جواز إرجاء تطبيق الشريعة، بحجة بناء العقيدة. فلو كان أمر الشريعة جائز الإرجاء لما طبقه النبى عليه الصلاة و السلام فور دخوله الى المدينة ... و إذا كان أهل مكة قد أخذوا حقهم - كما يزعم هؤلاء - فى التمهيد لتطبيق الشريعة .. فهل يا ترى أخذ أهل المدينة هذا الحق .. و ذلك مع أنهم أول من طبقت عليهم الشريعة ؟ و هل كان بناء (عقيدة) أهل المدينة قد استمر ثلاثة عشر عاما حتى فرضت و طبقت أوامر الشريعة فور الدخول؟

أليس هذا وهما تاريخيا كبيرا يسلكه كثير من المؤرخين دون وعى؟ و حتى - عند هذه الحالة - هل نحتاج فى بناء العقيدة لثلاثة عشر عاما توازى (الفترة المكية) أم سنستمر قرونا نبنى العقيدة ... متذرعين بذلك لعدم تطبيق الشريعة؟ و متى تبدأ فترة العقيدة يا ترى؟ هل ستبدأ مع بداية كل (فترة حكم) كل

حاكم فى العالم الإسلامي؟ أم ستبدأ من القرن الخامس عشر للهجرة؟ أم بعد خروج إسرائيل و زوال الأحكام العرفية و إبادة جراثيم الغزو الفكري؟

و أخيرا فى هذه النقطة : هل ترك الرسول عليه السلام و المسلمون تطبيق الشريعة لأن مجتمعاتهم - دائما - كان بها منافقون بلا عقيدة؟ و كان بها يهود و أقليات أخرى؟....

و الإجابة معروفة... فتطبيق الشريعة ضرورة لمقاومة إسرائيل و لعودة القدس و لكشف المنافقين و زحزحتهم عن مواقعهم... و تعطيل الشريعة هو شريان حياتهم الكبير... و للأسف يدعونا بعض رافضى التطبيق الى الانشغال بتحقيق الرفاهية أوّلا... مع أن الرفاهية لن تأتى إلا بالتطبيق الصحيح للشريعة ، وأيضا: فهل غاياتنا العليا، نحن المسلمين، هى تحقيق مجتمع (الرفاهية) أوّلا ، أم جعل كلمة الله (عقيدة و شريعة) هى العليا أوّلا... ثم تأتى الرفاهية أو (مجتمع الحياة الكريمة) فى الدرجة الثانية؟ و هى نتيجة مضمونة لتطبيق الشريعة بإذن الله .

و هل كان المسلمون فى المدينة ، و هم الذين تعرضوا للفاقة و الحروب المتواصلة و المضايقات الاقتصادية من قريش و أهل الجزيرة جميعا، هل كانوا يعيشون حياة كريمة؟.. و يناضلون - كما يطالبنا بعضهم - هداهم الله - فى معركة التنمية و تحقيق العدل الاجتماعى ؟ أم كانوا يؤثرون على ذلك كله ، و يضحون

بذلك كله، فى سبيل أن تكـون كلمـة اللـه (عقيـدة و شـريعة) هـى العليا؟

و لمـاذا لا يقـال - و هـو الواجب أن يقـال فعـلا - إن تطبيـق الشـريعة هـو الوسـيلة الأولـى ، و السـبيل الأقـوم ، لتحقيـق كـل الغايات التى يطالب بها هؤلاء..

إنها وسيلة - حقا - لكنها وسيلة لا يمكـن أن يتجاوزهـا شـخص ينتسب الى الإسلام ... بل نقولها - صراحة - إنـه لا يتجاوزهـا عن عمد و إصرار إلا مرتد عن الإسلام، و عدو له، محارب لله و رسوله.

و هكـذا يجب أن نقـول الحـق ، و أن نفـرق تفرقـة كاملـة بيـن الأبيض و الأسـود حتـى لا تختلـط الألـوان ، و تتعـثر رؤانـا للأشياء فى عصـر الصـحوة الإسلامية.

أعداء تطبيق الشريعة من المرتدين

نحن نقولها صراحة : إنـه مـع ظهـور الصـحوة الإسـلامية ، بـل قبلها بقليل ، ظهر بعض المثقفيـن علـى مسـرح الفكـر معلنيـن - بجلاء - ردتهم عن الإسلام. و هؤلاء ، وإن أصـروا علـى أنهـم مسلمون إلا أننا لا نملك - بكل مقاييس الشرع الصريح - إلا أن نقول عنهم: إنهم مرتدون.

و لقد حاولنا – عبثا – أن نبحث لهم عن مخرج يخرجهم من دائرة (الردة) فلم نجد لمحاولتنا مخرجا ، فهؤلاء يسخرون أقلامهم و فكرهم من فوق أعلى المنابر، و بوعى كامل ، لتكذيب القرآن، و التشهير بالشريعة و تحويل حسناتها الى سيئات، و وصفها بأبشع الصفات، و المطالبة – بصراحة تامة – بنسخ نصوص القرآن القطعية الدلالة... و لقد بدأت هذه الطائفة المثقفة تظهر وجهها المرتد القبيح مع إعلان تطبيق الشريعة فى بعض البلاد الإسلامية (و نحن نأمل أن يكون تطبيقا شاملا بإذن الله) ثم بدأت – فى خيانة غريبة – تتحرك ضد (الحق الطبيعي) للمسلمين فى أن يطبقوا شريعتهم على أنفسهم ... أفليس هذا مصادرة لحق من حقوق الحياة فى عصر يتشدق بعض أبنائه بالحرية و حقوق الإنسان.

و هذا موقفها على المستوى العملي....

أما على المستوى الفكري ، فقد قادت الحملة على تطبيق الشريعة مجلة مصورة أسبوعية [١] تصدر فى بلد عربى كبير وأصدرت سلسلة مقالات تخلو من كل فقه بالشريعة ، ولم يكتبها شخص له أدنى صلة بهذه الشريعة ، بل إن خلفيته الفكرية معروفة للجميع... و فى مقالاته – للهجوم على تطبيق الشريعة – ينتهى الى الآراء التالية ننقلها من كلامه بنصها...

إنه يبدأ فى التشكيك فى مفهوم الإسلام نفسه

و هو يقول فى ذلك : (إن لفظ الإسلام قد يفهم منه : إما الإسلام كما أوضح مناهجه كتاب الله و السنة الصحيحة لنبيه، أو الإسلام كما فصل أحكامه و أقام صرح شريعته المتكاملة جمهور الفقهاء منذ وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام و حتى أغلق باب الاجتهاد (!!) فى بداية القرن الرابع الهجرى، وتم تدوين الكتب الأساسية فى الفقه ، فى القرن الخامس (!!) أو الإسلام الذى هو محصلة عقائد المسلمين فى زماننا نحن بما تحويه من معتقدات دخيلة و خرافات لا صلة لها بالدين).

ثم يرد الكاتب على قاعدة أن الإسلام هو العودة الى أحكام الشريعة و يتمثل فى القرآن و السنة الصحيحة بأن هذا لا يمكن أن يقبل ببساطة ، بل هو مشكلة معقدة ، و يستدل بأن القرآن لم يورد عقوبة لا للربا و لا للخمر، و يقول ما نصه : (فالقرآن إنما يستهدف تقويم المؤمن بذكره بما يجلب له رضا الله عنه أو سخطه عليه و هو يغتر من أن المؤمن حقا سيتجنب الخمر و الربا من تلقاء نفسه دون حاجة الى تخويفه بعقوبة دنيوية تجعل من إحجامه عن الربا و الخمر رياء). ثم يقول الكاتب : إن

الرسول عاقب على شرب الخمر بضرب النعال، و عاقب أبو بكر بأربعين جلدة ، و جاء عمر بن الخطاب فجعلها ثمانين جلدة.. ثم يتساءل : فبأى العقوبات الثلاث إذن نلتزم، و القرآن لم ينص على واحدة منها؟ و لم اختار المسلمون من بعد و حكومة ضياء الحق فى باكستان الحد الذى فرضه عمر؟ و هل بمقدور المسلمين فى زماننا نحن أن يختاروا غير آثمين عقوبة أخرى غير تلك الثلاث؟ (انتهت تساؤلاته بنصها فى هذا المقام)...

و نحن نقول لهذا الكاتب و أمثاله (٢) : إن الإسلام هو الدين المنزل على محمد و المحفوظ فى القرآن المتواتر، (الذى لا يأتيه الباطل) ، و فى السنة الصحيحة و فى فقه الصحابة و تابعيهم لأحكام القرآن والسنة. و على أساس حفظ مصادر هذا الإسلام حفظا لم يتأت لمصادر أى دين آخر أسلم الكثيرون ، وعلى أساس هذا الفهم يعيش ٩٥ فى المائة من المسلمين ، و ما نسميه مشكلة ليس إلا مشكلة فى ذهنك تفتعلها عن عمد و ضلال... أما قولك إن الإسلام لم ينص على عقوبة دنيوية، و ضربك المثل بالربا و الخمر ، فهذا قول من لم يعرف (ألف باء) الشريعة، ذلك لأن عقوبات الشريعة على ثلاثة مستويات : حدود منصوص عليها كحدود السرقة و الزنا و الحرابة (وهى عقوبات لا تقبل التغيير، وتطبق بشروطها) (و القصاص) و هو حد خاص بالقتل، و ثالثا عقوبة لم تستطع معرفة مجرد اسمها وهى

عقوبة (التعزير) و هى عقوبة يقدرها الحاكم بقدر المصلحة العامة ، و تختلف من شخص لشخص، و هى عقوبة تدل على مرونة التشريع (فيما ليس فيه نص). و فلسفة هذه العقوبة أن من الناس من يكفيه ليردع ضرب بالنعل و من الناس من لا يكفيه إلا الحبس و التشهير، بل من الناس من يردع بكلمة نابية واحدة... لأن له كرامة و شرفا ... و عقوبة (التعزير) تصلح بما فعله الرسول و أبو بكر وعمر و بغير ما فعلوه مما يناسب كل عصر.. (فخبر فى جريدة يومية عن شخص قد يصيبه بالشلل) ... و هكذا ... فالمهم أن يتحقق (التعزير) و هو لا يكون فى الحدود المقررة و التى لا يعتدى عليها إلا مرتد ... و هذه هى شريعة الله لمن يؤمن بها «فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، و إن كثيرا من الناس لفاسقون» . و ليس عند هؤلاء حدود يقفون عندها... فالسنة النبوية الصحيحة الثابتة فى كتبها الستة المجمع عليها (على الأقل) - فضلا عن كتب السنة الأخرى - ليست جازمة فى التشريع ... و حتى القرآن الكريم ، فلا بد لكى يؤخذ بحكمه من أن تكون آياته قطعية الدلالة محققة لمصلحة مجموع الأمة ... و عليه فما لم تحقق هذه الآيات (المصلحة) فتلغى (!!) أحكامها .

و هكذا الإنسان إذا انشل عقله ، و خان عقيدته الصالحة، فإنه يكون مؤهلا لأن يرفض الحقيقة مهما كانت واضحة كالشمس

فى رابعة النهار.. و لعل هذا الإفساد الواضح كان من أهم أسباب ردود الفعل ، فاستيقظ فى الأمة الوعى بحقيقة دينها ، و أصبح مطلب تطبيق الشريعة مطلبا شعبيا عاما يطرح نفسه فى إطار الصحوة الإسلامية..

الصحوة الإسلامية و الطريق لتطبيق الشريعة

إن أحدا من المفكرين المسلمين لا ينكر أن الطريق لتطبيق الشريعة ليس مفروشا بالورود. فإن القوى الخارجية تتربص بالمسلمين و تحول بينهم و بين شريعتهم بكل الطرق، كما أن الغزو الثقافى قد أوجد طبقة مسلمة (عازلة) تقاوم عودة الأمة الى دينها، بالإضافة الى كثير من الاتجاهات الفاسدة التى تراكمت كالاقتصاد الربوي و الإعلام الهابط، و هى تحتاج الى جهود متدرجة فى تغيير مجراها.. و من هنا فالفكر الإسلامي الحديث لا يمنع من عمليات التمهيد، و التدرج فى كثير من القضايا التى تحتاج لهذا التدرج ... لكن – مع ذلك – لا نملك إلا أن نقول: إن هناك مغالطات لا بد من فضحها فى موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية ، فبعض الدول تزعم أنها فى طريقها للتطبيق منذ سنوات طويلة، و قد شكلت لذلك لجانا استغرقت

سنوات طويلة لتطوير (القانون البحري) حتى يوافق الشريعة ...
أما القانون البري الذى يعيشه كل الناس فى كل يوم - فإنه يأخذ الدرجة الثانية..

و إذا تجاوزنا عن هذا الاستخفاف بعقل الأمة المسلمة، و نظرنا الى ما يسمونه (بالتقنين) نظرة جد - مع أن كل المؤشرات تشكك فى ذلك - فإننا نجد أن سير هذه الدول نحو تطبيق الشريعة سير خادع، بالرغم من الإعلانات المتكررة عن "لجان التقنية" فكل المفاسد و المنكرات يحافظ عليها بعناد شديد، بل إنها لتزداد .. فالخمور تباع فى أصغر المحلات و المقاهى و الفنادق، و شوارع - بأكملها - مخصصة للدعارة المستترة باسم الفن، و الحرب على تطبيق الشريعة من جهة اليساريين و العلمانيين تحتل الصفحات الطويلة من المجلات الكبرى الرسمية، و الإعلام يعرض - حتى فى نهار رمضان - أحط الأفلام و المناظر، و شرب الدخان و الشاي شئ طبيعى لا يجوز الاعتراض عليه فى نهار رمضان... لدرجة أنك لا تحس بأنك فى عاصمة إسلامية و مع ذلك يزعمون أنهم فى طريقهم لتطبيق الشريعة... فهل هذا أمر تقبله العقول؟ و أية عقول هذه يا ترى؟
إننا لا نمانع فى التمهيد لتطبيق الشريعة، لكن هذا التمهيد لا يكون بالإعلانات المتكررة عن لجان التقنين. و لكن التمهيد يكون:

أ) بتنقية التلفاز من الأفلام الساقطة، و الصحافة من الحرب على تطبيق الشريعة قولا أو فعلا، والمذياع من الأغاني الماجنة .

ب) بتنقية المناهج الدراسية فى المدارس و الجامعات من كل ما يخالف الشريعة و الإسلام كله.

ج) بتوفير العمل الشريف لكل المنحرفين لصوصا كانوا أو زناة يتاجرون بأعراضهم أو أعراض غيرهم حتى لا تكون لهم حجة فى التطبيق...

د) بتنقية الاقتصاد و المؤسسات التجارية و المالية من الفائدة و كل صور الربا و الاحتكار و الفساد - و هذا أمر ميسور جدا بعد نجاح تجربة البنوك الإسلامية و شركات المال و التأمين الإسلامية.

هـ) بمنع الاختلاط فى المدارس و الجامعات ، و برمجة الدراسة بحيث يخصص وقت لصلاة الظهر - جماعة - فى المدارس و الجامعات فضلا عن الأوقات الأخرى التى يمكن أن توجد فيها دراسة..

و) بتطبيق مبدأ الشورى فى كل المؤسسات و الأجهزة ، صغيرة أو كبيرة .

ز) بفتح أبواب الحلال فى كل الأمور ، و إغلاق أبواب الحرام فى كل الأمور.

و مع كل ذلك فإن النية لو صدقت ، و لو فهم العضوان الأساسيان للأمة، و هما الحكام و الشعوب أن سفينة حياتهم واحدة، و أن حضارتهم لن تقلع سفينتها إلا بتطبيق شريعة الله ، إذ لا إسلام بدون شريعة، و لا معنى للنص الدستورى بأن الإسلام دين الدولة بينما الشريعة مصادرة و محرومة من التطبيق.. فهذا الأسلوب الذى نخدع به أنفسنا لن نخدع الله به... لو حدث هذا فسوف تتهاوى كل محاولات الإيقاع بين الحكومات الإسلامية و المطالبين بتطبيق الشريعة الذين يمثلون (٩٥) فى المائة على الأقل من مجموع الأمة... و سوف نجد - فى هذه الحالة - ألف وسيلة لتيسير كل عسير، و إحلال الحلال مكان الحرام، و الحصول على مئات البدائل التى تنسجم مع شريعتنا "صبغة الله و من أحسن من الله صبغة" إنها شريعة العدل التى لا حياة للمسلمين إلا بها "و كذلك جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، و إن الظالمين بعضهم أولياء بعض و الله ولى المتقين" . صدق الله العظيم

هوامش الموضوع :

(١) مجلة المصور المصرية

(٢) يدعى (حسين أحمد أمين)

دور الاجتهاد الفقهي
فى التأصيل الإسلامي للصحوة

أتراني أعبر عن نزعة مذهبيــة (ظاهريـة أو حزميـة أو غزاليـة) و أنا أعمد إلـى وضـع بعض "الضوابـط" - بكلمتـى تلك - فـى طريق معلم كبير من معالم مسيرة "المسلم المعاصر" !! .. "معلـم الاجتهاد"؟ ... لا ضير!!

• • •

العقل المسلم وحده - من بيـن المـدارس العقليـة المختلفـة - هـو العقل الذى يجب ألا يصده شعار ما - مهما يكن - عـن محاولة سبر أغوار الحقيقة...

إن الحقيقة غايته، و أمله، و ضالته التى "أنى وجدها التقطها"...

إنه لا يثنيه عنها - إذا كان إسـلاميا صادقـا - أن يكـون بعضـها مع عدوه ... أو أن يعترف بوجودها مـع محـاوره ، أو أن يدفـع فى سبيلها مهرا غاليا !!

و بالتالى : لتكن كلمتى هذه إحياء لنهج آخر، أو إشارة إلى ضوابط أراها ضرورية ، المهم .. أن يكون "الرأى الآخر" فى الصورة دائما، على الأقل ، لتكون المسيرة أكثر وعيا و حيطة!!

* * *

لقضية الاجتهاد فى الحق جذور تاريخية خطيرة مرتبطة بدور الفقه فى الحضارة... فإن "علم الفقه" – من وجهة نظر تاريخية – هو الطابقان الاجتماعي و الاقتصادي فى بناء الحضارة الإسلامية... و بالتالى فإن وصول هذا العلم إلى تقديم إطار ملائم متناغم مع الجوانب الحياتية الأخرى – يشكل بعدا خطيرا من أبعاد قضية الحضارة الإسلامية!

والمقياس فى عطاء هذا العلم ، ينحصر فى الجوانب الملحة التالية :

أ – مدى ارتباط هذا العلم بالأرضية اليقينية الإسلامية ، التى لا جدل فى أنها خلاصة الكليات التى يمتاز بها الإسلام.

ب – مدى قيادة هذا العلم – و لا أقول مدى تعبيره – للدورة الحضارية التى تمر بها الأمة.

ج – مدى إسهام هذا العلم فى تحقيق الشخصية الحضارية المتميزة للأمة، و فى تقديمها للإنسانية كحضارة ذات هوية، و ذات فعالية.

* * *

و الذين يتتبعون الأسباب الحقيقية لبعض الاتجاهات الفقهية (الفكرية) التى انتظمت أعلاما أفذاذا من أقطاب تاريخنا، على رأسهم ابن حزم الأندلسي، و أبو حامد الغزالي، والإمام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية...

الذين يتتبعون هذه الأسباب ، سوف يكتشفون العوامل الحقيقية (الحضارية) التى جعلت هؤلاء الأفذاذ المجتهدين - يقفون فى جانب، و الفقهاء المذهبيين التقليديين يقفون فى جانب معاد و مضاد.

و من هذه الأسباب :

* أن الفقه المذهبي قد تخطى دوره فى البناء الاجتماعي و الاقتصادي المعاش المنظور، ليصبح "عقيدة" و "هيكلا" أيديولوجيا، يطغى على الأصول الاعتقادية و الفكرية...

لقد تحول الرأى الى عقيدة، و تقدمت النافلة الفرض ، و الفرع الأصل !!

* أن الفقه - ممثلا فى بعض الفقهاء - قد خان دوره، و أصبح بجحوده أحيانا، و بعدم ارتباطه بالجذور أحيانا، لعبة سياسية تقاد و لا تقود و تحكم و لا تحكم !!

* أن الفقهاء – سامحهم الله – قد فرضوا أنفسهم و جمودهم العقلي بصورة "كنسية" ليست من طبيعة الإسلام، فانقلبوا من حارس للبناء الاجتماعي و الاقتصادي (التحتي) إلى تابع ذليل للأوضاع المختلة الواقعة التي يحركها البناء السياسي (الفوقي)... يعطونها التبرير الجدلي، و يلوون أعناق النصوص من أجلها ... و من أجل تسويفها !!

* و قدكان لهم دور – بهذا الاستبداد و هذا الجمود – في اضمحلال عديد من الدول الإسلامية، كتغذيتهم الخلافات بين ممالك أندلسية طائفية كثيرة، و كاستبدادهم بدولتي المرابطين (٤٤٨-٥٤١هـ) و الموحدين (٥٢٤-٦٦٨هـ) في المغرب العربي ، حتى أسقطوها .. و كمواقفهم إزاء بعض الأوضاع المختلة في دولتي المماليك والعثمانيين في المشرق العربي !!!

* * *

و من هنا كانت المسيرة المذهبية لابن حزم الأندلسي ثورة فكرية في حد ذاتها ...

فهذا الرجل العظيم لم يخش سطوة الفقهاء المالكية المتعبدين بمدونة أسد بن الفرات، أو بمدونة سحنون – في عصره !! ، و إنما تدرج – و فق اجتهاده – من المذهب المالكي، إلى المذهب الشافعي... فلما اشتد عوده العقلي مال إلى الظاهرية (نسبة إلى داؤد بن على الأصفهاني الظاهري المتوفى سنة

٢٧٠هـ).. فلما طال باعه ، اجتهد لنفسه ، و كون نظرات متكاملة خاصة، فى إطار منهج الظاهرية، أطلق عليها بعضهم لقب "الحازمية" !!

و من هنا أحس الغزالي – أمام الجمود المذهبي التفريعي – بضرورة إعطاء العقل المسلم وثبة تجميعية، ترد نثاره إلى الجذور ، فكان إحياء علوم الدين – الذى أحرق بتأثير ضغوط الفقهاء فى مسجد قرطبة الجامع إبان حكم على بن يوسف الموحدي – هو هذه الوثبة التجميعية !!

و من هنا – أيضا – كان رفض الإمام ابن تيمية لمناهج الفقهاء فى عصره، و ميله إلى الكتابة عن "التوحيد" و "أصول الإيمان" و "الأصول الثلاثة" و "السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى و الرعية" و غيرها من المؤلفات المنتمية للجذور، و حتى فتاواه – رضى الله عنه – كانت عملية اجتهادية ترد الفروع – بقوة – لهذه الأصول الكبرى!!

إننى لن أدخل هنا فى دوامة تاريخية مسهبة، كى أصل إلى تفسير شاف للعوامل التى أدت إلى بروز هذه الاتجاهات التى تزعمها هؤلاء الأعلام الثلاثة ، لكن الأمر الذى يجب التركيز عليه هنا، هو أن "الفقه" باعتبار دوره الاجتماعي و الاقتصادي، هو ركن من أركان الحضارة ، يخضع لقوانينها، و يأخذ مكانه من بنائها العام ... و حين تنفصل لبناته (بحكم الجمود أو

التسيب) عن الخط العام الذى يجب أن تسير فيه الحضارة ، يلزم رده – بقوة – إلى مكانه فى عملية "إحياء" – كما فعل الإمام الغزالى، أو عملية رد "للأصول" كما فعل الإمام ابن تيمية، أو عملية "إبطال القياس و الرأى و الاستحسان و التقليد و التعليل"(١) كما فعل ابن حزم.

أقول : إننى لن أدخل فى دوامة تاريخية لبيان هذه الأسباب ، لكننى سأكتفى هنا بإبراز بعض الدلالات التى تومئ الى البعد الحضاري – فى الإطار التاريخي – للتيارات الفقهية ذات الطابع الفكري التجديدي، تلك التى وعاها هؤلاء و تبنوها، فى وجه موجات السقوط التى كانت تجتاح العالم الإسلامى فى عهودهم...

* * *

لقد ولد الإمام أبو محمد علي بن حزم بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، و مات سنة ٤٥٦هـ...

و تعتبر هذه الفترة – كما هو معلوم – من أنكد فترات تاريخ المسلمين فى الأندلس، فخلالها استبد بأمور الدولة الأموية فى الأندلس المنصور بن أبى عامر الملقب بالحاجب، و ما زال أبناؤه ، و من عاصرهم من أمويي الأندلس يتصارعون حتى سقطت الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢هـ، بعد حياة دامت قرابة ثلاثة قرون !!

و بعد هذا السقوط الكبير ، و لمدة استغرقت بقية عمر ابن حزم، و سنوات بعده، عاشت الأندلس عصرها الهمجي المعروف بعصر ملوك الطوائف !!

و لقد ذاق ابن حزم مرارة هذه الفوضى، إذ كان أبوه وزيرا، و وصل هو إلى الوزارة مرتين ، و تعرض بالتالى لنكبات كثيرة، وصلت به الى اليأس من الأحياء جميعا، و بخاصة من هؤلاء الفقهاء الذين كان أكبر همهم السباحة مع التيارات المتصارعة، فى اتجاه منافعهم !!

و لما فشل ابن حزم فى مجال الإصلاح السياسي (من فوق) جنح إلى مجال الإصلاح الاجتماعي و الاقتصادي (من تحت) ، فكان الفقه هو المجال الطبيعي لتحقيق هذا الإصلاح (بالإضافة الى علاقة الفقه بالفكر السياسي الإسلامي).

ولما كان الفقه – بالصورة التى سار عليها الفقهاء فى مدن الأندلس – قد فقد إشعاعاته ، بل أصبح عاملا من عوامل التدهور ... لذا ، كان أكبر هم ابن حزم أن يعيد الفقه إلى شبابه، و الى جذوره (حتى و لو تم ذلك بالحدة و العنف) ، و أيضا ... ليخلص الفقه من جمودية و أهواء فقهاء الفتنة المنتشرين !

* * *

و الإمام أبو حامد الغزالي ، ولد سنة ٤٥٠هـ في طوس من أعمال خراسان بفارس ، و تنقل بعد ذلك في العالم الإسلامي حتى مات سنة ٥٠٥هـ !!

و هذه الفترة التى عاشها الغزالي ، لا تبعد خصائصها كثيرا – في الجناح المشرقي – عن سابقتها التى عاشها ابن حزم في الجناح المغربي من العالم الإسلامي.

ففى هذه الفترة ، كان الصراع الداخلي قد احتدم بين أبناء البيت السلجوقي الحاكم (المسيطر على الخلافة العباسية) مما أدى إلى انتشار الفساد و الاضطراب (و للغزالي رسائل مشهورة تصور هذا الحال)... و نتيجة هذه الخلافات السلجوقية الداخلية برزت "الإسماعيلية" كحركة ناشطة، تبث الرعب في قلوب الناس، وامتد نشاطها إلى العالم الإسلامي كله... و في هذه الفترة أيضا، و بسبب من هذا النزاع ، اكتسح الروم البلاد.. و بدأت الحملات الصليبية تهب عاتية على العالم الإسلامي حتى نجحت خلال الربع الأخير من حياة الغزالي أن تكون أربع إمارات صليبية كبيرة (الرها و أنطاكية و طرابلس و بيت المقدس) !!!

لكن .. أين كان ساسة العالم الإسلامى أمام هذه النوازل؟ .. و من باب أولى : أين كان الفقهاء إبان هذه الظروف؟!!

لقد كانوا مشغولين بالتقرب من أمراء المسلمين ، و بالحظوة عندهم : "فنفقت في ذلك الزمان كتب المذاهب، و عمل

بمقتضاها، و نبذ ما سواها، و كثر ذلك، حتى نسى الناس النظر في كتاب الله و حديث الرسول ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء" (٢)...

ولم يزل الفقهاء على ذلك، و أمور المسلمين راجعة إليهم، و أحكامهم صغيرها و كبيرها موقوفة عليهم (...) فكثرت لذلك أموالهم، و اتسعت مكاسبهم، و فى ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى من أهل مدينة جيان بالأندلس :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم
كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك
و قسمتموا الأموال بابن القاسم
و ركبتموا شهب الدواب بأشهب
و بأصبغ صبغت لكم فى العالم (٣)

* * *

و شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، ولد بحران سنة ٦٦١هـ، و مات بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ!!

و مولده - رضى الله عنه - كان بعد خمس سنوات فقط من كسح التتار للخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ ، بعد أن ظلت هذه الخلافة - طويلا - تترنح آيلة للسقوط!! ، و لم يكن

نقل الخلافة الإسمي إلى مصر إلا استغلالا سياسيا ذكيا من المماليك الذين انتصروا فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ.

و على امتداد حياة الإمام ابن تيمية، كان شبح التتار يقلق مضاجع الناس، و كانت الصور الباهتة للحكم الفاشل تساعد على قتامة الصورة، و انهيار الوضع الاجتماعي و الاقتصادي!!

و نحن نستطيع - باطمئنان مسبق - أن نرجع إلى مصدر حولي أو موضوعي من المصادر التى أرخت لهذه الحقبة - لنرى كيف كانت الانفصامية واضحة بين القاعدة و القمة، و لنرى عدم إحساس أكثر الفقهاء بالمسئولية التاريخية الملحة ، و انشغالهم بجزئيات مذهبية لا تمت إلى التحدى الحضاري بصلة... و فقط.. و كنموذج عابر، نقف هنيهة عند نماذج عابرة من تاريخ الحافظ ابن كثير (صاحب البداية والنهاية) لهذه الفترة.

* أحداث (سنة ٧٠٠ من الهجرة النبوية).

و نبدأ العام من أوله:

"ولما كان ثالث المحرم جلس المستخرج لاستخلاص أجرة أربعة أشهر عن جميع أملاك الناس و أوقافهم بدمشق، فهرب أكثر الناس من البلد، و جرت خبطة قوية، و شق ذلك على الناس جدا".

ثم ماذا :

« و فى مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام و أنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك و ازدادوا ضعفا على ضعفهم، و طاشت عقولهم و ألبابهم، و شرع الناس فى الهرب إلى بلاد مصر و الكرك و الشوبك و الحصون المنيعة، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة و بيع الجمل بألف .... و جلس الشيخ تقى الدين بن تيمية فى ثانى صفر بمجلسه فى الجامع، و حرض الناس على القتال ، و ساق لهم الآيات و الأحاديث الواردة فى ذلك ، و نهى عن الإسراع فى الفرار... و نودى فى البلاد لا يسافر أحد إلا بمرسوم و ورقة، فتوقف الناس عن السير و سكن جأشهم".

و نعبر الزمان شهرين :

"وفى أول ربيع الآخر قوى الإرجاف بأمر التتار، و جاء الخبر بأنهم وصلوا إلى البيرة".

"ثم جاءت الأخبار بأن سلطان مصر رجع عائدا إلى مصر بعد أن خرج منها قاصدا الشام، فكثر الخوف، و اشتد الحال..."

" وخرج كثير من الناس خفافا و ثقالا يتحملون بأهليهم و أولادهم، و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، و جعلوا يحملون الصغار فى الوحل الشديد و المشقة على الدواب و الرقاب".

ثم نمضى شهرين مع ابن كثير:

"واستهل جمادى الأولى و الناس على خطة صعبة من الخوف، و تأخر السلطان و اقترب العدو، و خرج الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله فى مستهل هذا الشهر إلى نائب الشام، فثبتهم و قوى جأشهم وطيب قلوبهم، و وعدهم النصر و الظفر على الأعداء.... و كان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا و قد دخل القاهرة، و تفارط الحال".

و تمضى الأحوال الاجتماعية و السياسية على هذا النحو.. بل على شر من ذلك !!

لكن .. يبقى السؤال الملح : أين كان فقهاء الأمة من هذه الأوضاع (عدا الشيخ ابن تيمية)؟

* يجيب ابن كثير أيضا (حوادث سنة ٧٠١هـ) :

"وفى هذا الشهر – من السنة المذكورة – ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقى الدين بن تيمية، و شكوا منه أنه يقيم الحدود، و يعزر، و يحلق رؤوس الصبيان".

و أيضا : "وبهذا و أمثاله – من إصلاحات ابن تيمية – حسدوه، و أبرزوا له العداوة ، و كذلك بكلامه فى ابن عربي و أتباعه ، فحسد على ذلك و عودى... و أكثر ما نالوا منه الحبس".

و يستمر ابن كثير (حوادث سنة ٧٠٥هـ):

"و كان للشيخ تقى الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة، و انفراده بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و طاعة

الناس له و محبتهم له ، و كثرة أتباعه و قيامه فى الحق و علمه و عمله" !!!

* * *

و ما أريد أن أقوله من وراء هذه المسيرة بإيجاز ، يتلخص فى:

* إن الفقه – حين يعرف دوره – يتحول إلى ثورة (تحتية) تهز البناء الاجتماعى و الاقتصادى كله، و تحميه عند الحاجة !!

* وهو – حين يؤدى دوره – يصنع – بلغة علمية قانونية – التحولات التطورية فى حياة الأمة، و يغنيها عن تحولات تفرض عليها بطريقة انفعالية عفوية، لا علمية !!

* و الفقه ليس مجموعة تصورات جزئية مفقودة الروابط، و إنما هو لبنات تقوم على أرضية صلبة ، و تنتمى إلىهيكل هندسي فني مدروس !!

* و الاجتهاد الفقهى ليس سباحة عقلية فى بحار جدلية لا حدود لها، و إنما هو سباحة فى بحر معلوم الحدود... واضح المسيرة ... واضح القاع... واضح الأهداف!!

* و على الرغم من الالتزام الشديد لهؤلاء الأقطاب الذين تكلمنا عنهم بالنصوص ، التزاما بلغ عند ابن حزم حد الرفض للقياس و الرأى و الاستحسان و التعليل....

... على الرغم من هذا ، فإن أكثر الاجتهادات الفقهية التى تعتبر ثورة ذات بعد تقدمي عضري ... إنما صدرت عن هؤلاء

الأقطاب الكبار، مما يؤكد أن الاجتهاد - بالعودة إلى المصادر، و برؤية حضارية واعية - إنما يمثل عطاء ثرا مجديا، و انفتاحا على كنوز تشريعية أكبر من أى تصور!!

* و ابن حزم - و هو أسبق الثلاثة زمانا - هو صاحب الرأى القائل بفرضية كفاية أغنياء كل بلد لفقرائها مأكلا و ملبسا و مشربا و مسكنا بقوة السلطان.

و هو الذاهب - فى قضية زراعة الأرض - مذهبا يجعل الزارع للأرض - لا المالك - صاحب اليد العليا ...

و هو صاحب نظرية التعليم الإجبارى (المرحلة الابتدائية) بقوة القانون، و صاحب الرأى القائل بجواز تولى المرأة القضاء(٤)!!!

* و لا يقل الإمامان الجليلان.. الغزالي و ابن تيمية - عن ابن حزم، عطاء، و اجتهادا رائدا، مع انطلاقهم جميعا من النصوص!!

* * *

إننى أرجو - و أدعو الله - أن يكون عقل المسلم المعاصر مدرسة فسيحة للاجتهاد، لكنى أرجو - أيضا - أن يكون هذا العقل مدرسة واعية بالدور الحضاري للفقه و الفقهاء.. تخطط له.. و تضع البرامج و الأهداف القريبة و البعيدة، فى ظل ارتباط ذكي بالأصول .. و بالواقع.. و بالتحديات الحضارية التى تواجهها الأمة الإسلامية ... و ما ذلك على الله ببعيد !!

هوامش الموضوع :

(١) اسم كتاب لابن حزم ، تحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني.

(٢) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٣٧، بتحقيق المرحوم سعيد العريان.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥، و انظر ظهر الإسلام ٣٨/٣ للأستاذ أحمد أمين.

(٤) ينظر المحلى و الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ، و يراجع : آراء من تراث الفكر الإسلامي للأستاذ فتحي عثمان، نشر دار القلم.

الحياة الروحية
فى إطارها الإسلامي

الحياة الروحية

ضرورة لاستئناف الحياة الإسلامية المعاصرة

ليس من شأننا أن نتتبع نشوء التصوف - أو نزعة التركيز على الجانب الوجداني و العاطفي و الانعزالي - منذ ظهر فى تاريخنا الإسلامي، و إن كنا نؤمن بقدر كبير من اليقين أن هذا النزوع - كمنهج متميز - لم يظهر فى تاريخنا طيلة القرن الهجري الأول و لا فى عصر الدولة الأموية بصفة عامة - و ليس معنى ذلك أننا نمضى مع تلك الآراء التى ترى أن الصوفي أبا هاشم الكوفي، المتوفى سنة ١٥٠هـ، كان أول من تسمى بالصوفي، و أنه يمثل حدا فاصلا بين الزهاد من رجال التصوف و بين غيرهم ممن ساروا سيرة السلف.

و يرى بعضهم أيضا أنه قريبا من منتصف القرن الثانى الهجري بنى أول خانقاه للصوفية بالرملة فى فلسطين.

و الذى يهمنا هنا أن نوضح أن الزهد فى الدنيا و الاستعلاء عليها ظهر عند ظهور الإسلام، لكنه لم يمثل تيارا مستقلا و لا نزعة مذهبية خاصة طيلة قرن و نصف من تاريخنا الإسلامي. فلم يقل أحد أن ورع الصحابة و التابعين و زهدهم كان شيئا متميزا عن بقية النسيج الإسلامي، بل كان الزهد و الاستعلاء مجرد خيطين من خيوط هذا النسيج. و بهذا الزهد فتح المسلمون الدنيا حين أعطوا الدنيا حجمها الحقيقي ، و نظروا إليها على أنها مجرد معبر و قنطرة و أنها وسيلة لا غاية، و أنها لا تستأهل عمر الإنسان كله، بل إن ما عند الله خير و أبقى.

و حتى الإمام الحسن البصري، الذى يعد فى نظر الكثيرين أشهر ممثلى حركة الزهد فى الصدر الأول ، فقد حظى بحب المسلمين جميعا و بتقديرهم لشخصيته المتوازنة. و قد كانت له فى ساحة الإصلاح و التربية مواقف مشكورة مأجورة، مع أنه كان ينزع إلى حياة روحية خالصة فى عبادته(١).

لكن الأمور قد تطورت مع بداية النصف الثانى من القرن الثانى تطورا واضحا، و بدأت حركة الزهد التى سارت حتى نهاية النصف الأول من القرن الأول وفقا لقواعد الدين، بدأت تفهم الزهد لدى كثير من ممارسيه: على أنه ليس استعلاء على الدنيا

و إخضاعا لها لكلمة الله و تضحية بالحياة الفانية من أجل الآخرة الباقية - بل فهمت الزهد على أنه رفض للحياة الدنيا و انعزال عنها و ترك لساحة الجهاد فى صف الحق ضد ساحة الباطل الواسعة الممتدة. و بدأ هذا الفهم يشق طريقه و يزداد أعوانا و أتباعا حتى أصبح هو الغالب و المسيطر و لم يعد النسيج الإسلامي الرزين الذى لا يمثل الزهد إلا خيطا من خيوطه هو النسيج السائد كما كان الأمر فى الجيل الأول ، بل بولغ فى تكثيف خيط الزهد على حساب الخيوط الأخرى التى بدأت تدق و ترق الى جانبه.

* و بدأ يظهر الخلل فى مفهوم الزهد و فى معناه. و بدأ هذا الخلل يتسرب إلى سائر أعضاء الجسم الإسلامي. و بالطبع فإن الجيل الأول من المتصوفة لا يتحملون كثيرا من تبعة هذا التطور، فقد كانت كثرة منهم بريئة منه، حريصة على تحقيق الانسجام و التوازن و التكامل بين الخيوط. فقد كان زهد إبراهيم ابن أدهم المتوفى سنة ١٦١، و داود الطائي المتوفى ١٦٥ ، و الفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧هـ. وشقيق البلخي المتوفى سنة ١٩٤ ، و غيرهم زهدا معتدلا بالرغم من أنهم ذهبوا فى أساليب الزهد و الرضى إلى أبعد حد ممكن ، لكنهم - مع ذلك - كانوا بعيدين عن الأحوال و الآراء و النظريات التى ظهرت فى التصوف فى العصر المتأخر.[٢]

* و خلال القرن الثالث الهجري بدا واضحا أن التصوف ظهر كنزعة مستقلة و أنه بدأ يدخله من التأثيرات غير الإسلامية شيء ما و بدأت بعض المفاهيم غير الإسلامية تظهر مختلطة بالمفاهيم الإسلامية، و بدأ الزهد ينتقل من حركة فردية إلى تيار جماعي. و قد حفل القرن الثالث بعدد كبير من مشايخ الصوفية من أمثال ذى النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ، الذى يعد من أكبر الشخصيات التى شكلت المذهب الصوفي من أمثال أبى تراب النخشبي المتوفى سنة ٢٤٥هـ ، و بشر الحافى المتوفى سنة ٢٢٧هـ، و سرى السقطي (المتوفى ٢٥٣هـ)، و يحيى بن معاذ الرازي (المتوفى سنة ٢٥٨هـ) ، و أبى يزيد البسطامي (المتوفى ٢٦١هـ) و أبى حفص الحداد (المتوفى حوالى سنة ٢٦٥هـ) ، و حمدون القصار (المتوفى سنة ٢٧١هـ) ، و أبى سعيد الخراز (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) ، و أبى حمزة البغدادي (المتوفى سنة ٢٨٩هـ) و سهل بن عبد الله التستري (المتوفى سنة ٢٧٣ أو ٢٨٣ أو ٢٩٣هـ) ، و أبى الحسين النوري (المتوفى سنة ٢٩٥هـ) ، و الجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٢٩٧هـ)، و عمرو بن عثمان المكي (المتوفى سنة ٢٩١ أو ٢٩٧ أو ٣٠١هـ) و أبى عثمان الحيري المتوفى سنة ٢٩٨هـ) و ممشاد الدينوري (المتوفى سنة ٢٩٩هـ).

و لكن مع تلك التأثيرات غير الإسلامية يمكن القول إجمالا بأن صوفية هذا العصر قد اتخذوا القرآن و السنة ميزانا لجميع ما يقولون به من بحوث نظرية و ما يشعرون به من حالات وجدانية و كان من نتيجة ذلك أنهم عنوا بوجه خاص بناحية الزهد و العبادة و الناحية الأخلاقية فى التصوف. يقول سهل بن عبدالله التستري : "بنيت أصول مذهبنا على ست : التمسك بكتاب الله ، و الاقتداء بسنة رسول الله – صلى الله عليه و سلم – و أكل الحلال ، وعدم إيذاء الخلق و لو آذونا ، و البعد عما نهى الله عنه، و التعجيل بالحقوق" ، و يقول الجنيد : "ما أخذنا التصوف عن القيل و القال ، لكن عن الجوع و ترك الدنيا و قطع المألوفات و المستحسنات".(٣)

و لهذا فنحن نستبعد بعض ما نسب إلى متصوفة هذا العصر من مثل ما نسب إلى ذى النون المصري من أنه قال : (طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه) (نقلا عن **تذكرة الأولياء :١/١٧١**)، فمثل هذا القول يتنافى مع الأصول التى ذكرها سهل التستري و الجنيد و غيرهما.

و خلال القرنين الرابع و الخامس دخل التصوف مجالات جديدة، و بدأ الكلام يظهر عن الشريعة و الحقيقة و الطريقة... و هذا يمثل منعطفا جديدا ابتعدت به جمهرة كبيرة من الصوفية عن المنهج الإسلامي، و تأثرت فيه بحركات الباطنية و التأويل

و التأثيرات الفارسية و النصرانية، و هذا ما جعل رد فعل آخر قوى يظهر فى العالم الإسلامي ممثلا فى المذهب الظاهري الذى قام على رفض التأويل وتفسير النصوص بظاهر دلالتها اللغوية.

و أيا كان الأمر، فإن الاتجاه الذى قال بأن صور العبادات لا قيمة لها إلا من حيث دلالتها عن حقائق روحية الاتجاه، مقتبس من الإسماعيلية الباطنية، و كان من نتيجته ظهور قوم نسبوا إلى التصوف زورا و بهتانا قالوا برفع التكاليف الدينية ، و الركون الى الحقيقة و ليس الشريعة.

على أن أصحاب هذا الاتجاه كانوا قلة مرتدة لم يؤبه بها، و قد قاومها الصوفية الصادقون أنفسهم. فقد كان جمهور الصوفية يرون أن التحقيق الكامل بالحقيقة لا يتعارض مع أوامر الشرع فحسب، بل إن مراعاة الشرع لا يتجزأ عن نظامهم الصوفي العام.(٤)

و قد استطاع الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ – مع بعض التحفظات – أن يقف ضد هذا التيار الباطني و أن يمزج التصوف بالقرآن و الحديث مزجا تاما، مستخرجا من المجموع مادة واحدة.(٥)

و مهما يكن من رأى فإن أبا حامد الغزالي قد نجح فى نقطتين لا خلاف حول نجاحه فيهما : الأولى : تقديسه للشريعة، و الثانية :

وقوفه في وجه مذهب وحدة الوجود، مؤكدا أن العبد عبد والرب رب، ليس كمثله شئ!!

الصوفية و العمل الاجتماعي و التربوي

إن زهد المسلم هو أمر فردي و تربية ذاتية . و هذا الزهد لا يمنعه و لا يعطيه الحق في الانعزال عن الحياة و رفض مناصرة الحق فيها و إيثار الفقر و الذل على الغني و القدرة و العزة ٠ و ليس زهدا إطلاقا هذا الزهد الذى لا يقدر صاحبه على العطاء و الفاعلية و الإنتاج... فالزهد الفقير كذب لا معنى له. إن الزهد يكون مع القدرة و الغنى. و قد كان عبدالله بن المبارك – رحمه الله – من أغنى الناس و أكثرهم تجارة و عملا و ربحا و كان أيضا من أكثرهم زهدا. و قبل عبدالله بن المبارك كان الخليفتان : عمر بن الخطاب ، و عمر بن عبدالعزيز – رضى الله عنهما – من أكثر الناس قدرة و امتلاكا و عطاء و زهدا. و لم يرفض واحد من هؤلاء العمل الاجتماعي و خدمة الناس و تحمل أضخم المسئوليات دون أن يتظاهر أحدهما بالزهد أو يضع لنفسه شارة معينة. و لذلك حين رأت (الشفاء بنت عبدالله) طائفة يسمون أنفسهم بالنساك و وجدتهم يسيرون في الشوارع خانعين منطوين فسألت عنهم فقيل لها:

إنهم النساك فأجابت : كان والله عمر بن الخطاب إذا تكلم أسمع و إذا ضرب أوجع و إذا مشى أسرع و هو الناسك حقا.

و قد كانت للمجاهد الصوفى (سهل التسترى) جهود ضخمة ضد جماعات المبتدعة المارقين أدعياء الصلاح و الزهد الذين يطلبون الدنيا – مع التظاهر بالزهد – من أخس الطرق، و أسوأ السبل، و قد أصدر كتابا عنوانه: "المعارضة و الرد على أهل البدع و أهل الدعاوى فى الأحوال".(٦)

و قد وقف كثير من الزهاد فى وقف موجات الفساد و المنكر و النفاق. و للتستري فى كتابه (التراث الصوفي) كلام طيب فى هذه المجالات، و منه قوله: "و اعلموا يقينا أنكم لن تجدوا فى زمانكم من عمل بعلمه إلا ما شاء الله، و كل من كان أكثر علما كان أسوأ حالا» قيل: و كيف ذلك؟ و لم صار هكذا؟ قال: "لأنهم صيروا علمهم مأكلة لحم أو طلب رياسة أو متاع الدنيا أو رياء وسمعة و تركوا الأمر الأول و آثروا الدنيا على الآخرة".(٧)

و يقول التستري أيضا : "سيكون فى آخر الزمان العلماء ثلاثة أصناف : صنف منهم عرفوا المنكر فأنكروه بقلوبهم ، و قوم منهم عرفوا المنكر فيهم فخالطوهم عليه، و قوم عرفوا المنكر فأنكروه بالعلم جهدهم، و هؤلاء أعز من الكبريت الأحمر".(٨)

و قد كان الحسن البصري – رضى الله عنه – إماما فى باب تغيير المنكر بالحكمة و الموعظة الحسنة و قد كان يفضل سياسة

تغيير المنكر بأقل قدر ممكن من الخسائر لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فلهذا كان يقول للناس: إن الحاكم الظالم إما أن يكون عقوبة من الله ، و العقوبة لا ترد بالثورة عليها، وإما أن تكون بلاء يستأهل الصبر حتى يحكم الله. و حين سنحت له الفرصة ليعظ الوالي ابن هبيرة نصحه بأحكم قول و أشجعه على خلاف مداراة صاحبيه في نصيحة ابن هبيرة و هما : ابن سيرين و الشعبي. و من الطريف أن ابن هبيرة أعطى الحسن أكثر من زميليه مع أنهما قالا له قولا لينا، فقال زميلاه في ذلك : سفسفنا له فسفسف لنا.(٩)

و على خطا الحسن البصري كان الفضيل بن عياض مع خلفاء بني العباس نصحا و توجيها... و كان يقول: لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام (يقصد أن في صلاح الإمام صلاحا للعباد و البلاد). و حكايات الفضيل بن عياض مع هارون الرشيد عديدة و متنوعة. و عندما قال له هارون الرشيد: عظني، قال له الفضيل : ماذا أعظك؟ هذا كتاب الله بين الدفتين: انظر ماذا عمل بمن أطاعه و ماذا عمل بمن عصاه؟ ... إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصا شديدا و يطلبونها طلبا حثيثا ... أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها. فقال له هارون : عد إلي، قال الفضيل : لو لم تبعث إلي لما أتيتك و إن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك.و قد قال له

الرشيد يوما : ما أزهدك ! فقال له الفضيل : أنت أزهد منى ... قال الرشيد: و كيف ذلك؟!! قال الفضيل : لأنى أزهد فى الدنيا، و أنت تزهد فى الآخرة . الدنيا فانية و الآخرة باقية.(١٠)

و قد كانت لذي النون المصري مواقف أيام الخليفة المتوكل العباسي كما كانت لحاتم الأصم مواقف أيام الرشيد أيضا. و قد رفض سهل التستري علاج الحاكم ابن الصفار حتى يرد كل مظلمة للناس عنده، ثم لما عالجه عرض عليه مالا و ثيابا فلم يقبلهما.(١١)

وأما بشر بن الحارث فقد رفض لقاء الخليفة المأمون، كما أن أبا الحسين النوري قال للخليفة الموفق، عندما طلب إليه أن يعرض حاجته: حاجتى أن تنسانى. و القول نفسه قاله أبو الحسين النوري (م : ٢٩٥هـ) عندما سأله الخليفة الموفق عن حاجته ، فقد قال له : إن حاجتى إليك هى أن تنسانى، فلا ترانى مقربا بقبولك و لامطرودا بهجرك.

و قد كانت للإمام أبى حامد الغزالي مواقف رائعة فى الثبات على الحق و الجهر فى وجه المنكر، دون أن يخشى فى الله لومة لائم .... و من ذلك نصحه لأحد ملوك خراسان، فقد قال له : يا أسفا! إن رقاب المسلمين كادت تسقط بالمصائب و رقاب خيلك كادت تسقط بالأطواق الذهبية. كما كتب إلى أمير مدينة طوس بخراسان يقول له : "اعلم أن مدينة طوس أصبحت خرابا

بسبب المجاعات و الظلم، و أن دعاء أهل المدينة (طوس) مجرب بالخير و الشر... فاتق الله".

و قد كانت للشيخ الجيلاني مواقف مع بعض الخلفاء. و عندما ولى الخليفة المقتفى قاضيا ظالما قال له من فوق المنبر : "وليت على المسلمين أظلم الظالمين ، ما جوابك عند رب العالمين أرحم الراحمين".. فارتعد الخليفة و بكى و عزل القاضى الظالم.(١٢)

و على الدرب نفسه من الجهاد بالكلمة و الأمر بالمعروف، كان أبو الحسن الشاذلي و له مواقف مع السلاطين كثيرة مشهورة..

و قد كان للصوفية فى اليمن خلال القرنين السادس و السابع الهجريين أثرهم البالغ فى تغيير نظام الحكم و أسلوبه . و المؤرخون يذكرون تلك الصداقة الوطيدة بين مؤسس الدولة الرسولية الملك المنصور بن عمر بن علي بن رسول (٦٢٩-٦٤٧) و بين الفقيه الصوفي محمد بن أبى بكر الحكم (م : ٦١٧هـ) و صاحبه الصوفي محمد بن حسين الجليني (م : ٦٢١هـ). و يقال إنهما اللذان قويا عزمه فى الاستيلاء على الحكم بعد مشاهدتهما تعنت نظام الحكم السابق و فساده ، و بهذا تدين الدولة الرسولية للصوفية فى ظهورها.(١٣)

و أيا كان الأمر ، فقد اجتهد كثير من الصوفية فى تغيير الأحوال و تربية أنفسهم و ذويهم و فى الإصلاح الاجتماعي بالوسائل الحكيمة ... و قد وجدوا أن من بين منافذ التغيير الاجتماعي

نصح الحكام و توجيههم و بيان الرأى فيهم، و هو الأمر الذى يتطلب شجاعة لا يملكها إلا الزاهد فى الدنيا.(١٤)

* * *

و فى العصر الحديث لم يخل بعض قادة الحركات الإسلامية و دعاة الإصلاح و الوقوف فى وجه الحضارة المادية الأوربية - لم يخل هؤلاء من شحنات روحية وازنت فى نفوسهم بين التربية و التعليم و المادة والروح. و من هؤلاء الشيخ المجاهد عبد القادر الجزائري - رحمه الله رحمة واسعة - فقد ضم إلى جهاده فى مقاومة الاحتلال الفرنسي تربية روحية و أخلاقية، و كانت له نوازع روحية أضفت على شخصيته كثيرا من الحكمة و الرضا بقضاء الله و الأمل فيه.

و قد كان الطابع الروحي بارزا فى فكر الفيلسوف المجدد (محمد إقبال) صاحب فلسفة الذات . و قد عرف "إقبال" حقيقة الإنسان و قيمته فأراد أن يلقنه درس الإنسانية الحقة بما تنطوى عليه من جانب إلهي، و قد دعا الناس إلى أن يتخلقوا بأخلاق الله و أن يكتسبوا صفاته حتى يكتب لهم الخلود.. "وهنا تصبح العقبات و المشكلات فى طريق الرقى الروحي للإنسان لا شئ، فلا الزمان و لا المكان و لا العلم المادي بأسره و لا الشيطان نفسه بقادر على أن يثنى الإنسان عن عزمه على الرقى الروحي الدائم و شوقه الى الاتصال بالحقيقة الخالدة و الوصول إلى الله".(١٥)

و كما يقول أستاذنا الإمام أبو الحسن الندوي : فقد تربى إقبال فى مدرستين إحداهما تقليدية هى مدرسة الشهادات، أما المدرسة الأخرى فهى مدرسة توجد فى كل زمان و هى أقدم مدرسة على وجه الأرض، إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان فيحملها الإنسان معه فى كل مكان هى مدرسة القلب و الوجدان ، و هى مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية و تمدها بالقوة الروحية [١٦] ومعلمو هذه المدرسة يتمثلون فى الإيمان و الحب الجارف للرسول – صلى الله عليه و سلم – و القرآن بما له من مآثر لا توجد إلا فيه.[١٧]

و فى رأى إقبال أن التصوف الصحيح مصدر من مصادر المعرفة لأنه نزوع روحي قوى، و هو يرى أن هناك مصدرين آخرين للمعرفة هما الطبيعة و التاريخ.

و قد كان للأثر الروحي مكانه فى شخصية الشيخ محمد عبده بتأثير خال والده الذى كان مريدا سنوسيا يدعو الى إحياء الكتاب و السنة ، و ذلك حين كاد الشيخ محمد عبده يهجر الأزهر يأسا من علومه ، فاستطاع الشيخ درويش خضر أن يعيد للفتى محمد عبده ثقته بنفسه فظلت ثقته بالشيخ درويش قائمة و مؤثرة. و فى كل حين كان الشيخ درويش يلتقى به فيعلمه كثيرا من السلوك و الأخلاق بل و ساعده على أن يختلط بالناس فيعلمهم

و يصلح حالهم لأن الناس هم مجال الدعوة و حقل النصائح و الإصلاح.(١٨)

و هذا لم يمنع الإمام "محمد عبده" من مهاجمة بعض الطرق الصوفية لما رآه من انحراف بعض هذه الطرق عن الدور المنوط بها، فالتصوف الذى تعلمه الشيخ "محمد عبده" من الشيخ "درويش خضر" تعلم منه كيف أن الزهد ليس تواكلا و خنوعا و دجلا و إنما هو تربية للنفس و نور فى القلب يؤدى إلى حركة حياة ، و إلى جهاد دائب من أجل صلاح هذه الأمة المسلمة. فحين رأى بعض التقابل بين هذه الصورة و بين الواقع ثارت نفسه دون أن يقلل من شأن التربية الروحية حيث استفاد هو فى شخصه و دعوته للإصلاح بهذه التربية.(١٩)

و قد نشأ الشيخ حسن البنا – رحمه الله رحمة واسعة – فى بيت علم و دين و اتصل بالطريقة الحصافية الصوفية التى تركت فى نفسه أثرا روحيا طيبا. و كان أكثر ما لفت نظر الشيخ حسن البنا شدة الشيخ الحصافي فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مهما كان فى حضرة عظيم أو كبير ، كما أنه أفاد من سلوك الشيخ و أتباعه كثيرا من الأخلاق الفاضلة، أو بتعبير الشيخ حسن البنا: "العفة الكاملة عما فى أيدى الناس، و الجد فى الأمور، و التحرز من صرف الأوقات فى غير العلم أو التعلم أو الذكر أو الطاعة و التعبد ، سواء كان وحده أم مع إخوانه

و مريديه، و حسن التوجيه لإخوانه و صرفهم عمليا إلى الأخوة و الفقه و طاعة الله".(٢٠)

و هكذا كان للجانب الروحي تأثيره فى القديم و الحديث على شخصيات كثيرة – لم نقدم إلا أقل القليل منها ، و الرائع أن هذه الشخصيات – و هذا هو الجدير بالذكر – كان لها دور ريادي فى الأعمال الاجتماعية و التربوية... و قد آمنت بأن الطاقة الروحية لا تتحقق قيمتها إلا إذا أضاءت الحياة و صبغتها بالصبغة الإلهية ، و ارتفعت عن أن تكون نزعة فردية إلى مستوى التغيير الحضاري العام.

دول برز فيها الجانب الروحي

و الحقيقة أننى وقفت كثيرا عند بعض الدول التى ظهر فيها الطابع الدعوي و الروحي إذا ما استثنينا عصر الرسالة و الراشدين الذى يكاد يكون معروفا لدى جمهرة علماء المسلمين.

و من الدول التى برز فيها هذا الطابع و التى وقفت عندها دولة المرابطين التى دفعتنى دراستى لها إلى أن أؤمن بأنها من أعظم الدول الإسلامية ، و أن الجانبين الدعوي و الروحي كانا متألقين فيها.. و لهذا المنحى تعرضت هذه الدولة الإسلامية الكبرى لحقد

المستشرقين و طعنهم فيها ، و التقليل من جهادها. و قد نشأت هذه الدولة فى موريتانيا و المغرب الأقصى و أجزاء من المغرب الأوسط فى منتصف القرن الخامس الهجري (٤٤٨-٥٤١هـ) (١٠٥٦-١١٤٧م) و قامت على مبادئ عقدية و روحية متينة أهمها الإيمان الراسخ بالكتاب و السنة و التمسك بمذهب الإمام مالك فى الفروع ، و الرباط فى سبيل الله رباطا يقوم على تربية إسلامية روحية قوية.

و لقد كان مؤسسو هذه الدولة نماذج صالحة للعباد الصالحين و المجاهدين الأبرار و العلماء العاملين... هكذا كان عبد الله بن ياسين ، و يحيى بن إبراهيم ثم يحيى بن عمر، ثم أبو بكر بن عمر اللمتوني الذى تنازل عن الملك الذى أقامه طواعية لابن عمه يوسف بن تاشفين مؤثرا الجهاد و الاستشهاد على الرئاسة و الملك .. و متنازلا عن كل متاع الدنيا حتى عن زوجته الذكية الرائعة الجمال زينب النفزاوية، و ظل يجاهد فى أدغال إفريقيا لمدة ثمانية عشر عاما حتى مات شهيدا بسهم مسموم.(٢١)

و بالتربية الروحية و الجهادية نجح المرابطون فى توحيد المغرب و الأندلس و فى القضاء على المرتدين مدعى النبوة فى قبائل غمارة و برغواطة، و فى القضاء على طغيان مملكة غانا الوثنية و فى إنقاذ الأندلس من طغيان النصارى فى موقعة الزلاقة المشهورة فى رجب سنة ٤٧٩هـ (أكتوبر ١٠٨٦م) (٢٢).

و إلى جانب المرابطين، و على أشلائهم، قـامت دولـة الموحديـن التى خلفتهم و حكمت المغرب و الأندلس و تلقب مؤسسها "محمد ابن تومرت" بالمهدى، و اعتمد منهج التربية الروحية، و كـان لـه مريدون كثيرون ، و لـولا ما نسب إليه من قولـه بعصمـة نفسـه و من ولوغه فى دماء المرابطين ، لكان له شأن آخر فى تاريخنا الإسلامي... مع أن دولته - على أية حال - بقيادة تلميذه الوفـى الشـجاع المؤمـن "عبدالمؤمـن بـن علـي" قـد وحـدت المغـرب و الأندلـس .. كمـا أن دولـة الموحديـن قـد أنقـذت الأندلـس فـى موقعة الأرك سنة ٥٩١هـ.

و قد ظهر الطابع الروحـي فـى الدولـة المهديـة السـودانية و فـى شخص مؤسسها محمد أحمد بن عبدالله الـذى كـان منـذ صـغره ميـالا إلـى التدين و الزهـد ... و فـى شبابه انخـرط فـى سـلك الطريقـة الصـوفيـة (السـمانية) ... و قـد كـان لجهـوده الروحيـة و السياسـية شـأن كبيـر معـروف ، و أقـام دولـة فـى السـودان ، و هزم الإنجليز فى معارك كثيرة، و قتـل غـوردون و دانـت لـه السودان بالطاعة.

و على هذا الطريق الروحي ظهرت السنوسية. و كـان مؤسسـها السيد محمد بن علي السنوسي، رحمه اللـه (١٧٨٧-١٨٥٩م) - و هو جزائري الأصل مـن مستغانم - دائم التفكير فـى أحـوال المسلمين و سبب تأخرهم ، و كيفية العودة بهم إلـى الإسـلام فـى

نقائه، و حركته . و قد التزم بفقه الكتاب و السنة، و تعرف على الحركات الصوفية فى عصره، و درس منهج العودة الإسلامية إلى الطريق السليم فهداه تفكيره إلى أن الرجوع إلى الكتاب و السنة مع فتح باب الاجتهاد هو أسلم طريق... كما رأى أن إنشاء المراكز الإصلاحية التى أنشأ منها نحو ثلاثمائة تحت اسم (الزوايا) و ربط جميع المسلمين فى وحدة قائمة على أساس ديني و روحي هما الوسيلتان لإحياء المسلمين. و قد حاربت السنوسية كل زهد خامل و كل بدع لا أصل لها فى الدين، و وقفت فى وجه حركات التنصير التى كانت تريد أن تكتسح إفريقيا.(٢٣)

و أخيرا : فنحن نؤمن بتوازنية الإسلام و بتكامليته ، و نرفض أن ينافس كلمة "إسلام" أى مصطلح آخر ، و ندعو المسلمين جميعا إلى نسبة أى شرف لدينهم .. و لقد فزعنا عند ما قرأنا لمؤرخ معاصر أن سبب حماس عقبة بن نافع للإسلام و إخلاصه فى الجهاد أنه كان – كما يقول هذا المؤرخ المعاصر – "رجلا عنيفا متشبعا بهذا الحماس الصوفي الذى يدفعه الى التماس الشهادة و بيع نفسه من الله"..(٢٤) فإن عقبة بن نافع التابعي العظيم الذى استشهد سنة (٦٤هـ) لم يكن ينطلق من حماس صوفي – ليس لأن كلمة التصوف والاتجاه الصوفي لم يكونا قد ظهرا بعد فحسب – بل لأن عقبة و التابعين جميعا كانوا متشبعين بالإسلام الذى تنزل على محمد بن عبدالله – عليه

الصلاة و السلام – و كان كل ما كسبوه يعزى إلى الإسلام مباشرة دون وساطة أحد...

و نحن نأمل أن لا يسقط على الإسلام شئ يكثف جانبا على جانب كما أننا حريصون كل الحرص على أن لا ينفصل المسلمون عن أصول دينهم من كتاب و سنة، و نتذكر – و نذكر المسلمين جميعا – بحديث الرهط الذين أرادوا تكثيف بعض الجوانب على حساب الأخرى، فقال لهم الرسول – فى نهاية حديثه الشريف المعروف : "فمن رغب عن سنتى فليس منى".

لكننا – مع كل هذا – نرى أن الحوار هو السبيل لتوحيد فكر المسلمين و مناهجهم، و أن نضج العقل المسلم ضروري لتمحيص الأفكار و السلوكيات ، و نرى أن الرفض المسبق و المطلق مرفوض، و أن تجريح المسلم لمجرد انضوائه تحت شعار خاص أو طريقة خاصة عمل مرفوض كذلك ، لأن للمسلم المخطئ أجرا إذا كان مجتهدا و للمسلم المصيب أجرين.. فلا معنى للرفض بالجملة أو القبول بالجملة ، بل تعرض كل الأشياء و الأفكار – بتفصيل – على كتاب الله و سنة رسوله.

و نحن كما نؤمن بأهمية إحياء العقل المسلم ليبدع و يعمل و ينتج فى عصر السباق العلمي – فإننا نؤمن أيضا بأهمية إحياء (الجانب العاطفي فى الإسلام) – حسب تعبير أستاذنا الإمام الشيخ محمد الغزالي – لكن يجب أن ينظر إليه على أنه (جانب

لا يجوز له أن يقضى على بقية الجوانب، بـل علـى العكس فهـو جانب "الشحن الروحي" الذى يجب – مع العقل – أن يحرك كـل الجوانب ، و يدفع القطــار الإسـلامي إلـى أن يمشــى ، و إلـى أن يمشــى بسرعـة مناسـبة للعصـر، و إلـى أن يمشـى – و هـذا هـو الأهم – على القضبان الصحيحــة وصـولا إلـى الغايـة الإسـلامية الكبرى.

هوامش الموضوع :

١ – رينولد نيكولسون: فى التصوف الإسلامي و تاريخه ، ص ٣، طبعة القاهرة ١٩٥٦.

٢ – المرجع السابق ص ٤

٣ – راجع القشيري ص ١٧ و نفحات الأنس ص ٤٣، الجامعي، و تذكرة الأولياء ١/٣٢٩

نقلا عن المرجع السابق، ص ٢٦.

٤ – نيكولسون : فى التصوف الإسلامي و تاريخه، ص ٧٧

٥ – المرجع السابق ص ٨٣.

٦ – نشره الدكتور محمد كمال جعفر بالقاهرة سنة ١٩٨١.

٧ – سهل التستري : التراث الصوفي ٢/٩٣ القاهرة ١٩٨٦ بتحقيق محمد كمال جعفر.

٨ – من التراث الصوفي ٢/١٣٥

٩ – انظر الحلية ١٤٩/٢ نقلا عن الدكتور أبى اليزيد العجمي (الأصول الفكرية للجانب الاجتماعى فى التصوف الإسلامي) رسالة دكتوراه بدار العلوم، ص ٣٤٥.

١٠ – ابن خلكان – وفيات الأعيان – ترجمة رقم ٥٠٤.

١١ – د/ أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعى فى التصوف الإسلامي ، رسالة دكتوراه، ص ٢٥١.

١٢ – المرجع السابق، ص ٣٥٠.

١٣ – المرجع السابق، ص ٣٥٥.

١٤ – أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي فى التصوف الإسلامي (رسالة دكتوراه بدار العلوم) ص ٣٥٠.

١٥ – د/ محمد السعيد جمال الدين – رسالة الخلود لإقبال – المقدمة – وانظر د/ أبو اليزيد العجمي – مجلة المسلم المعاصر– الكويت عدد ٣٣ (دراسة عن الزهاد المسلمين).

١٦ – روائع إقبال ص ٢٥ و ما بعدها، ط. الكويت ١٩٧٨.

١٧ – المكان السابق

١٨ – د/ أبواليزيد العجمي، "الزهاد المسلمون و مجالات العمل الإسلامي".

١٩ – المرجع السابق

٢٠ – مذكرات الدعوة والداعية – دار الشهاب ١٩٦٦، و انظر المرجع السابق.

٢١ – انظر فى تاريخ المرابطين : قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود، و دولة بنى حماد للدكتور عبدالحليم عويس،

و فى تاريخ المغرب من الأندلس للدكتور مختار العبادى وغيرها.

٢٢ – أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب من الأندلس ص ٣٠٩ ، طبع الإسكندرية.

٢٣ – انظر السنوسية: دين و دولة لمحمد فؤاد شكري، نشر مصر ١٩٤٨، و انظر أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية (رسالة دكتوراه).

٢٤ – أحمد مختار العبادى فى تاريخ المغرب من الأندلس ص ٩٠.

إحياء الأخلاق الإسلامية

من واجبات الصحوة الإسلامية

الأخلاق : فطرة و تربية

الحديث عن الأخلاق حديث عن أساس من الأسس التى لا خلاف حولها ، بالنسبة لقيام الأمم و بقائها، و قيام الحضارات و ازدهارها.

و قد يستطيع مجتمع أن يعيش بدون أخلاق فترة من الوقت ، أو يعيش وفق أعراف و نظم و تقاليد تخلو من الأخلاق الزكية المنبعثة عن إيمان صحيح و عقيدة إيجابية ، لكن شأن هذا النوع من المجتمعات إلى شقاء و سقوط.

و دائما يرتبط بقاء الأمم بمدى تماسكها الأخلاقي الذى يعكس تماسكها النفسي و الفكري و شعورها الحي بالمسئولية ، و التزامها بالواجبات الاجتماعية.

و لا مكان للأخلاق بدون عقيدة. و قد تؤدى العقيدة الباطلة الى نوع من السلوكيات و الأخلاقيات الجامدة التى تشبه الضوابط النفعية أو المصلحية.

بيد أن هذا النوع مؤهل للسقوط عند الامتحانات الحقيقية.

لكن الأخلاق النابعة من عقيدة صحيحة هى - وحدها - التى يقوى أصحابها على عبور كل الامتحانات، و على الصمود فى وجه كل إغراءات الدنيا، و هؤلاء هم الذين قدموا النماذج الحضارية الراقية، و أصبحوا أمثلة عليا، و صنعوا أمما و بنوا حضارة...

إن الحقائق الأخلاقية حين تصبح تعبيرا عن إيمان حي صحيح تسمو بصاحبها عن الأنانية و الذاتية المغرقة، و تفرض عليه تبعات و سلوكيات قد تتناقض مع مصالحه الشخصية و رغباته و أهوائه.

و إلى جانب هذا فإن الأخلاق المنبعثة عن عقيدة صحيحة تتجاوز الأفكار الجامدة و المفاهيم المجردة التى لا حياة فيها، و تقود صاحبها إلى التعرف على الضمير الأخلاقي الذى يعيش فيه، و تدفعه إلى الترجمة العملية عن هذا الضمير، و لهذا فهو يتعرف - أيضا - على صوت الحق المطلق.. "ويترجم فى ثنايا قلبه الرسالة السماوية لخالقه، و نجده خلف الفكرة يلمح حقيقة حية و مؤثرة، و يشعر أنه مرتبط بها ارتباطا عضويا ، و يستمد منها على الدوام القوة و النور، و يشعر نحوها بأعمق مشاعر الاحترام ممزوجة بأرق مشاعر الحب. هذه الشعلة العاطفية التى تحرك إيمانه العقلي، تغذى فى الوقت نفسه "طاقاته الخلاقة ".

و هو حين يتوقف أو يسقط لا ييأس. إنــه سيعاود الوقـوف علـى قدميه و متابعة المسيرة معتمدا على تلك القوة الهائلة التى يسـتمد منها العون.و بذلك يمكن القـول إن الأخـلاق لا تجـد مكانـا أكـثر خصـوبة ، تزدهر فيه، من ضمير المؤمن."(١)

إن القيم الأخلاقية ستمتزج امتزاجا كاملا مع الأوامر و النواهـي الشرعية ، و سيعملان معـا علـى الوصـول بالإنسـان الـى أعلـى درجـات الإنسـانية ، و ذلـك عـن إيمـان داخلــي لا عــن إرغـام (قانوني) خارجي!! فالالتزام الخلقي المنبعث عن عقيـدة يسـتبعد الخضـوع المطلـق مثلمـا يسـتبعد الحريــة الفوضويــة، و يضـع الإنسـان فـى موضعـه الحقيقـي بيـن المــادة الصــرف و الـروح الصـرف".(٢)

إننـا لا نريـد فـى هـذه الصـفحـات أن نقـف طويـلا عنــد القضـايـا الفلسفية التى تتصل بالأخلاق كعلم، فالجانب التربوي فـى بحثنـا هو المحور و بيت القصيد.

لكن – من منطلق تحديد المصطلحات و التصورات فقط – نذكر أننا نقصد بالأخلاق ذلك الالتزام الأخلاقي الذى ينبثق فى أعمـاق الفرد نتيجة التربية الإسلامية التــى تجعـل الإنسـان المسـلم يلـتزم بالشرعية و بالقيم الأخلاقيـة ، ليس خضوعـا للعقـاب و الحـدود الشـرعية، و لكـن مراقبـة للــه و حبـا لــه و خوفـا مــن عقابـه الأخروي، و رغبة فى الثواب وفى الحياة الآخرة. و إذا كان علم

الأخلاق يتعلق موضوعه بالسلوك البشري فإن الإسلام لا يرضى بالسلوك المجرد ، بل يعطى أهمية خاصة للباعث (النية) والهدف. و لهذا فنحن نميل إلى ذلك التجديد الذى يحاول تعريف علم الأخلاق ملتزما بالرؤية الإسلامية ، فيرى أنه "علم يهتم بدراسة قواعد السلوك البشري و تطبيقاتها فى ظل أصول عقدية وغايات حددتها الشريعة، كما حددت ضوابط هذا السلوك، بما يجعل هذه الضوابط معايير عامة لا تختلف فى زمان أو مكان أو أشخاص" و هو بهذا علم معياري يجمع بين النظر و العمل و بين المثال و الواقع.(٣)

و الأخلاق - بهذا المفهوم الإسلامي - ذات صلة وثيقة بالتربية. بل إن التربية و التعليم هما أبرز وسيلتين لتحويل الأخلاق الى سلوك تلقائي يصدر دون معاناة ... و يبرز عمق الصلة بين الأخلاق والتربية على أساس أن الوظيفة الأولى للمربي إنما هى العمل على ضرورة وعى الشخصية الإنسانية بالقيم الخلقية . و كلما زاد التزام المربي نفسه بالقيم الخلقية كان تأثيره الخلقى على الناشئة أقوى وأفعل، ذلك لأنه لا انفصال بين الأخلاق فى إطاريها النظري و العملي ... كما أن هذا الارتباط بين النظر و العمل فى مجال الفعل الخلقي يجعل من القيمة الخلقية سلوكا للحياة و منهجا للتعامل البشري.(٤)

و تتضح العلاقة الوثيقة بين الأخلاق و التربية من خلال النقاط التالية :

١ – استخدام الأخلاق لأسلوب التأديب و التعويد عن طريق غرس العديد من المبادئ و القيم في الشخصية الإنسانية ، و بذلك يستفيد علم التربية من هذه المبادئ و هو يخطط لتربية النشء في مناهج نظرية و عملية.

٢ – تنطلق التربية في اهتماماتها من اعتقاد أن الإنسان ذو جوانب و ملكات ، و لا بد من التخطيط لتنمية هذه الملكات، و وضع البرامج المختلفة لكل أنواع التربية البدنية و العقلية و الروحية و الصحية و النفسية .

٣ – يهتم علم التربية بضرورة التوافق بين الفرد و الجماعة، و هو نفسه يعمل كعلم الأخلاق، لأنه يعنى بتحديد المعايير التي يكون الفعل بها متوافقا بين الفرد و الجماعة.(٥)

و هكذا نرى الأخلاق ذات امتداد طبعي يتجه الى الفطرة النقية التى خلقها الله نظيفة بريئة. فالأخلاق تنبع من هذا النبع الرباني العظيم.: "فطرة الله التى فطر الناس عليها"...(٦) و فى الحديث الشريف : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"....(٧)

- و قبل أن يؤثـر الأبـوان و المـنزل ، و أخـلاق المجتمـع ، و روح الحضارة إعلاما و تربية و تعليما بعد أن يصل الفرد الى سن تقبل هذه المؤثرات الحاسمة...

- قبل هذه المرحلة كان الفرد - بفطرته التى خلقه الله عليها - وعاء نظيفا طاهرا... و من هنا فإن جزءا كبيرا من منهج الإسلام فى التربية يتجه إلى هذه الفطرة من أجل إحيائها و إعادتها إلى طبيعتها وإزالة ما تراكم عليها من مؤثرات ضارة.. و عندما يتحقق هذا و يستطيع الإنسان الانسجام بعقله وثقافته مع فطرته التى تمثل رصيده الهائل العظيم و ملكته الربانية - فإنه يستطيع بسلاح الفطرة ورصيدها العظيم، و بسلاح التربية الإضافية السديدة، و بالثقافة و الوعى اللذين غذى بهما فى الاتجاه الإيجابي البناء ... يستطيع بهذين السلاحين المتكاملين: الأصلي الفطري و الثقافي و العقلي الإضافي - الانتصار على كل قوى الشر الداخلية من غرائز و أهواء ، و الخارجية من مؤثرات اجتماعية ، وفكرية ضارة.

- و الحق أن منهج الإسلام فى التربية و الأخلاق يمتاز بالجمع بين هذين الرافدين العظيمين للالتزام الخلقي... و هو يرفض الاتجاه العاجز الذى يعتمد على العامل العقلي و الثقافي وحده دون تنقية الفطرة و تأهيلها لتقدم ملكتها العظيمة بدورها العظيم.

الشرع : المصدر الأعلى للالتزام الخلقى

و لقد كان "كانت" موفقا حين أكد أنه كشف عن مصدر الإلزام الخلقي و حدده فى الملكة العليا فى النفس الإنسانية، تلك التى توجد مستقلة عن الشهوة و عن العالم الخارجي معا. يقول كانت: "أيها الواجب ، أيها الاسم الأسمى الأعظم... أى مصدر جدير بك؟.... و أين نجد جذر ساقك النبيلة؟ لعله لا يكون – على الأقل – سوى ذلك الذى يرفع الإنسان فوق ذاته ... و الذى يشده الى نظام للأشياء ، لا يمكن لقوة أن تتصوره سوى قوة الإدراك".. فالإنسان بانتمائه فى وقت واحد إلى عالم الإدراك ، و عالم الحس، ذو طبيعتين، تسيطر أشرفهما، و هى (العقل) على دنياهما، و هى (حب الذات غير المشروع). و هذا الصوت العقلي واضح تمام الوضوح، شديد التأثير، قابل لأن يدركه حتى السذج من الناس ... و الحدود التى تفصل الأخلاقية عن حب الذات مميزة بكثير من الوضوح والضبط، حتى إن النظرة العادية لا تعجز عن تمييز ما يتصف به أحدهما دون الآخر [٨]
و يعلق على هذا النص الأستاذ محمد عبدالله دراز فيبين نقاط الالتقاء بينه و بين وجهة النظر الإسلامية المستخلصة من القرآن فيقول:

إذا ما رددنا نظرية (كانت) إلى أبسط تعبير عنها و خلصناها من جميع مظاهر الدقة الشكلية و نزعة التسامى و من نزعة التشاؤم، و من بعض ما شابها من البرود العاطفي فهى بعد هذا لا تعد من المسلمات فحسب، بل إنها لتتفق تماما – فيما نرى – مع النظرية المستخلصة من القرآن.

لقد علمنا هذا الكتاب أن النفس الإنسانية قد تلقت فى تكوينها الأولي الإحساس بالخير وبالشر: "ونفس و ما سواها ، فألهمها فجورها و تقواها" (الشمس : ٧-٨). و كما وهب الإنسان ملكة اللغة، و الحواس الظاهرة فإنه زود أيضا ببصيرة أخلاقية: "بل الإنسان على نفسه بصيرة، و لو ألقى معاذيره".(القيامة : ١٤) حقا "إن النفس لأمارة بالسوء" (يوسف : ٥٣).. و لكن الإنسان قادر على أن يحكم أهواءه : "وأما من خاف مقام ربه، و نهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى"(النازعات : ٤٠).

و إذا لم يكن كل الناس يمارسون هذا التأثير على أنفسهم فإن منهم من يفعله بتوفيق الله له ، و هو ما قرره رسول الله صلى الله عليه و سلم – فى قوله : "إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من نفسه ، يأمره و ينهاه" [٩]. ففى الإنسان ، إذن ، قوة باطنة لا تقتصر على نصحه و هدايته و حسب بل إنها توجه إليه بالمعنى الصريح أوامر بأن يفعل أو لا يفعل [١٠]. و الحق أن القرآن لم يقتصر على الملكات العقلية وحدها، فلقد عنى فى

الوقت نفسه عناية كبيرة بإيقاظ أشرف مشـاعرنا و أزكاها ، بيد أنه لم يحرك هذه المشاعر إلا تحت رقابة عقلنا، فهو يتوجه الينـا دائما، أعنى يتوجه الى ذلك الجانب المضىء من أنفسنا إلى ملكتنـا القادرة على أن تفهم، و أن تقدر فى كل شئ ما يضر و ما ينفـع، و أن تقوم القيم المختلفة (١١). لكن الملكة الفطريـة وحدهـا ليسـت كافية لكى تزودنا بالأخلاق المطلقة العامة. و لقد أبصـر (كـانت) الصخرة التى تصطدم بها الأخلاق القائمة على الضمير الفـردي. و الواقع أنه من المستحيل عند بلوغ درجة معينة أن نسن قانونـا يفـرض باعتبـاره ضـرورة علـى كـل الضمـائر، فلمـاذا أضحـى باقتناعى من أجل اقتناعك؟

إن مـن الضــرورى ، إذن ، أن نلجـأ إلــى سـلطة عليـا لحسـم الخلاف، و لن يكون الحـل بكـل تـأكيد أن نعترف بهـذه السـلطة للمجتمع، إذا كان الأمر أمرا أخلاقيا لا أمرا شرعيا (١٢).

إن العقل - إذن - و مع كل مـا تسـتطيع الفطـرة أن تـزوده بـه، و كذلـك المجتمـع ، كلاهمـا يسـتطيع أن يكـون مصــدرا محـايدا و أمينا للإلزام الخلقى... فما المصدر إذن؟ إننـا لابـد أن نبحـث مخلصين و أن نتوجه وجهة أخرى ، فأين نفتش عن ذلكم النـور البديـع لنهـدى ضمائرنـا، عندمـا لا تجـد حيثمـا توجهـت غـير الظلام؟.... و أين نجد ذلك المخلص الذى تعلقت به أنفسنا و قـد تقاذفتها الشكوك؟

ليس لدينا أمام هذه المسألة سوى إجابة واحدة تفرض نفسها ، إذ لا أحد يعرف جوهر النفس وشريعة سعادتها و كمالها مع الصلاحية الكاملة، و البصيرة النافذة - غير خالق وجودها ذاته: "ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير" (الملك : ١٤).

فمن ذلكم النور اللانهائي يجب أن أقتبس نوري ، و إلى ذلكم الضمير الأخلاقي المطلق يجب أن أتوجه لهداية ضميري: "و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم، و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون" (البقرة: ٢١٦) [١٣]

- إنه الشرع السماوي وحده ، لأنه صادر من العليم الخبير المحيط ، وهو المصدر الذي يستطيع أن يلزمنا الأخلاق، و نستطيع نحن - في اطمئنان - الخضوع لأوامره.

- إن الروح الخلقي الذي يؤدي إلى تماسك المجتمع و ترابطه - أي الروح الخلقي من زاوية أثره الاجتماعي الذي يؤدي إلى الالتزام الحقيقي ، و ليس الأخلاق الفلسفية ، إنما هو منحة من السماء إلى الأرض يأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات الحقة.

و مهمته - أي الروح الخلقي - ربط الأفراد في المجتمع بعضهم ببعض[١٤] كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : "وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما

ألفت بين قلوبهم، و لكن الله ألف بينهم. إنــه عزيــز حكيـم (الأنفال:٦٣).

- و هذه الروح الأخلاقية الإسلامية هى وحدهـا - و ليست أيـة أخـلاق وضعيـة أو فلسفية أو قانونيـة - هـى التـى قدمـت أروع النمـاذج الأخلاقيـة فـى التـاريخ البشـري، فهـى التـى خلقـت مـن عنـاصر متفرقـة كالأنصـار و المهـاجرين أول مجتمـع إسـلامي، حتى كان الرجل فى المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن ينكحه من يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له، كى يبنى بذلك أسرة.(١٥)

و مـع كـل مـا تسـتطيع القوانيـن و الأخـلاق الوضعيـة أن تقدمـه لحماية المجتمع، فإن قدرتها علـى إحكـام تماسك المجتمـع قـدرة محدودة و وقتية و رهـن بمسـتوى ثقـافي معيـن، و هـى تقتضـى جهدا هائلا حتى يصل - و لـو مـن الناحيـة العمليـة فقـط - إلـى درجة معقولة من الانضباط، سواء كان هذا الانضباط راجعا الى الالتزام المصلحي النفعي، أو إلى الإيمان بفكرة ما يعتقد صاحبها فى سلامتها وجدواها....

و مع ذلك فهناك جرائم تجمـع عليهـا البشـرية - أخلاقيـا - لكـن القانون يحميها إذا كانت بـالتراضـى بيـن طرفيهـا ... و مـن هـذه الجرائـم الزنـا و اللـواط والقمـار - مثـلا - فـى المجتمعـات الأوروبية و بعض المجتمعات المحسوبة على الإسلام...

و أيضا فإن المساحة التى تستطيع الدولة أن تراقبها و أن تضبطها مساحة قليلة بالنسبة لشبكة العلاقات الاجتماعية فى الحياة ... و ليس إلا الدين – و الإسلام هو الدين الحق – قادرا على إحكام الرقابة – فضلا عن توافر الباعث الكريم و الهدف السامى و الإحسان – و ذلك على امتداد النسيج الاجتماعي كله.

فإذا افترضنا أن الدولة بالقوانين الأرضية – تعاقب على الجرائم الخلقية حين تضبطها، فهى لن تستطيع أن ترى كل جريمة، و لا أن تتعقب كل مجرم. و سيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثبات و لا عقاب. و إنما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخلقية الى الارتباط بالله. و ذلك وحده هو الضمان.... فالارتباط بالله هو الذى يهذب النفس فلا تندفع وراء الجريمة.

و هو الذى يقيم أهدافا أعلى من أهداف الأرض تستنفد الطاقة الجسدية و النفسية الفائضة فتصرفها عن عالم الشهوات.

و هو الذى يقيم فى داخل النفس حسيبا يراقب كل عمل لا تصل إليه يد القانون و لا تبصره عين الدولة.

و هو الذى يعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التى يتركها فى الأرض أملا فى النعيم الدائم من السماء.

و هو الذى يحدث فى نهاية الأمر رهبة من الجريمة أقوى من رهبة الدولة و القانون.

و بهذه العوامل كلها مجتمعة و ممتزجة فى العقيدة، يمتنع الناس عن ارتكاب الجريمة. فإذا أضيف الى ذلك أن تكون القيود التى تفرضها العقيدة معقولة فى ذاتها لا تحرم الا المتاع الزائد عن الحد، فقد استوت لها (العدالة) مع (القدرة على التهذيب) [١٦].

و ذلك ما يتحقق فى العقيدة الإسلامية التى تعترف بالغرائز الموجهة. و بالتالى فالأخلاق الراقية و الشاملة و الصادقة والتى تليق بإنسانية الإنسان ، و الكفيلة بحماية الحياة و الحضارة و بازدهارها هى وحدها الأخلاق الإسلامية.

إن الإسلام يتعامل مع الإنسان الواقعي الطبيعي، لكنه يهدف الى ترقيته بالأخلاق و يلبى حاجاته، فى الوقت نفسه – دون تفريط أو إفراط. و نظرا لقصور العقل عن إدراك كل جوانب الحياة و الكون دفع الإسلام الإنسان إلى اللجوء إلى الوحى (النصوص)، و لأن النصوص لا تفهم إلا بالعقل دفع العقل إلى الاجتهاد ، و من ثم ربى حسه عن طريق المران، و عمق جانب الخيرية فيه، منميا الجانب الفطري فى حسه و وجدانه لتجيء سلوكه نتاجا لهدى النص و فهم العقل و حدس الوجدان المهتدى، وكل ذلك ليجعل المجموع من الناس على طريق الالتزام الخلقي الذى يوائم بين طبيعة الفرد و بين المجتمع.[١٧]

خصائص التكليف الخلقي فى الإسلام

إلى جانب عنصر "الربانية" الأساسي فى عملية التكليف الأخلاقي، على أساس أنه ضمان للباعث والهدف و الشمول و الاستمرار ، ثمة خصائص لا يعد التكليف الأخلاقي ذا فاعلية أصيلة و حقيقية – فى المستوى الإنساني و الحضاري – إلا بها.... و من أبرز خصائص التكليف الأخلاقي أنه تكليف (عام) فهو كل قانون مادي أو اجتماعي أو منطقي يحكم بالضرورة جميع الخاضعين له ، على نسق واحد كما يحكم الفرد الواحد فى مختلف ظروفه. و إلا فلن يكون القانون قانونا ، أعني قاعدة عامة ثابتة. و يتجلى طابع الشمول فى القانون الأخلاقي فى القرآن بوضوح لا ريبة معه، ذلك لأن مجموع أوامره يتوجه فى جملته إلى الإنسانية جمعاء ، و هو ما يقرره قوله تعالى: "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا" (الأعراف : ١٥٨) و قوله : "لأنذركم به و من بلغ" (الأنعام : ١٩) و قوله : "ليكون للعالمين نذيرا" (الفرقان : ١) وقوله : "أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم" (البقرة : ٤٤).

و لعل من نافلة القول أن نؤكد فكرة (الإمكان المادي) للعمل كشرط لا معدى عنه فى الإلزام الأخلاقي. فليس الضمير العام هو الذى يعترف وحده بتلك الحقيقة البدهية القائلة بأنه لا يطلب

الطيران من النوق، و لكن ذلك هو بذاتـه مـا ورد فـى كثـير مـن النصـوص القرآنية، مثل قوله تعالى : "لا يكلف الله نفسـا إلا مـا آتاهـا" (الطـلاق : ٧) و قولـه : "لا نكلـف نفسـا إلا وسـعها" (الأنعام:١٥٢). و قوله : "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" (البقرة : ٢٨٦).[١٨]

و من الناحية العملية اتسم المنهج الأخلاقي الإسلامي باليسر فـى الأوامر و التشريع، و لقد أدركت عائشة - رضـى اللـه عنهـا - هذا المعنى ، فيما رواه البخاري قالت : حتى إذا ثاب الناس الـى الإسـلام، نـزل الحـلال و الحـرام ... و لـو نـزل أول شـئ : "لا تشربوا الخمر" ، لقالوا : "لا ندع الخمر أبدا".[١٩]

و أكد عمر الثانى - عمر بن عبد العزيز - بدوره أهمية المنهـج فى المجال السياسي، ففيما يحكى عنه أن ابنه عبدالملك قـال لـه: "ما لك لا تنفذ الأمور ، فوالله ما أبـالى لـو أن القدور غلـت بـى و بك فى الحق؟" فقال له عمر: "لا تعجـل يـا بنـى ، فـإن اللـه ذم الخمر فى القرآن مرتين ، و حرمها فى الثالثة، و إنى أخـاف أن أحمل الحق على الناس جملة ، فيدفعـوه جملـة ، و يكـون مـن ذا فتنة".[٢٠]

و هكذا نجد أن الإلـزام الأخلاقـي قـد جـاء فـى القـرآن مشـروطا بأمرين:

أولهما : أن النشاط الذى يستهدفه يجب أن يكون يسيرا على الطبيعة الإنسانية بعامة أى "خاضعا لإرادة الإنسان".

و **ثانيهما**: أن يكون هذا النشاط ميسرا فى واقع الحياة المحسوسة، أى يمكن ممارسته وغير استبدادى"(٢١).

و لعل حرص الإسلام على حث المسلم على (عدم اليأس من رحمة الله) و على التوبة من أقوى الأدلة على تقدير الإسلام للطبيعة البشرية ، و على فتحه النوافذ الرحيمة - باستمرار - كى يبقى الإنسان فى مستوى القدرة على العودة إلى الطريق القويم و الارتفاع إلى مستوى الأخلاق الإسلامية، وعدم الاستمرار فى الهبوط الى الأخلاق الحيوانية.

لكن التوبة فى الإسلام توبة إيجابية ، فهى تقتضى تصحيح المسار و لا سيما فيما يتصل بحقوق الناس... إنها ليست مجرد "اعتراف" يستريح به الضمير، بل هى حركة فى اتجاه المستقبل لتصحيح الماضى والحاضر و تعمير بناء الإنسان من جديد.....

و لهذا كانت التوبة الصحيحة هى التوبة النصوح ... و أول دليل على التوبة النصوح هو الواجب الآتى المعجل ، الذى بدونه تصبح فكرة التوبة متناقضة. هذا الواجب ينحصر فى العدول السريع عن الذنب ، فإذا كان الخطأ فى واجب أهمل ، و ما زال الأمر به قائما فإن الإصلاح ينبغى أن يتمثل فى قضاء حقيقي، ذى طابع أخلاقي ، فالعمل الناقص يجب أن يعاد، و يؤدى

بطريقة مناسبة، آجلا أو عاجلا . و إذا كان مستحيلا أن نبطل الخطأ في ذاته، فمن الممكن أن نمحو آثاره ، بأداء أفعال ذات طبيعة مناقضة. و ها هو القرآن يعلمنا أن : "الحسنات يذهبن السيئات"(هود : ١١٤) و الرسول عليه الصلاة و السلام يقول: من كانت له مظلمة لأحد، من عرضه أو شئ ، فليتحلله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار و لا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، و إن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" (٢٢).

و لم تقم العلاقة بين الإنسان و الأخلاق - في الإسلام - على الإلزام الإجباري أو الاختياري فقط، بل قامت على ما هو أهم من ذلك و هو "الحب" في الله، و الرغبة في إرضاء الله ، بأداء الأمر، وبالإحسان فيه، أى إتقانه و مراقبة الله فيه...

و من المضطرد في القرآن أن تأتى الأوامر و النواهى في سياق الحب من الله و عدم الحب من الله ... ففى الأمر بالإحسان لا يأتى الأمر مجردا، و إنما يأتى:

- "و أحسنوا إن الله يحب المحسنين" (البقرة : ١٩٠)
- "و الكاظمين الغيظ و العافين عن الناس و الله يحب المحسنين" (آل عمران : ١٣٤)
- "و أما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم و الله لا يحب الظالمين" (آل عمران : ٥٧).

- "فمن عفا و أصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين" (الشورى : ٤٠).

- وفى الحث على التقوى يرد التعبير القرآنى فى سياق الحب :

- "بلى من أوفى بعهده و أتقى فإن الله يحب المتقين" (آل عمران : ٧٦).

- "فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين (التوبة : ٤).

- و فى الحث على التوكل يقول الله تعالى فى القرآن: "فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" (آل عمران : ١٥٩).

- و فى الحث على الصبر : "و ما ضعفوا و ما استكانوا و الله يحب الصابرين" (آل عمران : ١٤٦).

- و فى النهى عن الفخر و الكبر : "إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا" (النساء : ٣٦).

- و فى النهى عن الخيانة : "ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما" (النساء : ١٠٧).

- "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور" (الحج : ٣٨).

- و فى النهى عن الفساد يقول الله تعالى: "والله لا يحب الفساد" (البقرة : ٢٠٥).

"و يسعون فى الأرض فسادا و الله لا يحب المفسدين" (المائدة : ٦٤).

- و فى الأمر بالتوبة يأتى التعبير القرآني: "إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين" (البقرة : ٢٢٢)

- " فيه رجال يحبون أن يتطهروا و الله يحب المطهرين" (التوبة : ١٠٨)

- و فى النهى عن الاعتداء: "و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (البقرة : ١٩٠)

- "ادعوا ربكم تضرعا و خفية إنه لا يحب المعتدين" (الأعراف : ٥٥)

و هذا الأسلوب فى الأوامر و النواهى الأخلاقية خصيصة أخرى تسمو بالأخلاق إلى أرفع المراتب، و تجعلها فوق العلائق القانونية و المنفعية والشخصية... إنها (علاقة حب) بالله... و من هذه العلاقة السامية ترشح الأخلاق بأزكى آيات السمو، و تصل إلى أعلى مستوى أخلاقي يستطيع الإنسان أن يصل إليه.

و للفضائل الخلقية فى الإسلام شروط أساسية أخرى أهمها توافر عنصر النية الصالحة القاصدة للفعل. ومن الوجهة الأخلاقية

الإسلامية لا قيمة للفضائل - بالنسبة لاستحقاقها ثواب الله و رضاه - ما لم تكن مصحوبة بنية صالحة.

يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم : "إنما الأعمال بالنيات ، و لكن امرئ ما نوى" (٢٣) فثمة توكيد واضح فى الإسلام على أن موقف الإنسان الباطن أو نيته هو شرط القيمة و الفضل ، كما أنه شرط الإدانة و العقاب.

و هذا الشرط أيضا يميز الفضيلة عن العمل المشروع : "فدافع الضرائب يقوم بعمل مشروع مهما كانت نيته ، إذا دفع ما عليه من ضرائب ، لكن مؤتى الزكاة لا يكون فاضلا و لا يكون لزكاته قيمة إلا إذا آتاها بنية طاعة الله عز و جل . و الكرم لا يكون فضيلة إذا كانت النية من ورائه كسب إعجاب الناس و محمدتهم . و الرجل الذى يطأ زوجته ظانا أنها امرأة غريبة هو زان فى حكم الأخلاق. و لكنه قام بعمل مشروع فى نظر القانون، و لا يقام عليه حد الزنا. فالنية شرط جوهري للخلقية، ولكنها ليست شرطا للمشروعية... و كما أن العمل الصالح بدون نية أو بنية سيئة لا قيمة له فكذلك العمل الفاسد إذا وجدت النية الحسنة لا إثم عليه". (٢٤)

و القرآن الكريم يؤكد أهمية العمل القائم على الإخلاص القلبي و النية الحسنة فيقول : "يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" (الشعراء : ٨٨-٨٩).

و معنى ذلك أنه إذا لم يتوافر الإخلاص لله فى القلب لم تثمر الطاعات الظاهرة على اختلافها القرب إلى الله جل جلاله، و إذا لم تتهذب النفس بالأخلاق الفاضلة التى أمر الله المسلم بأن ينسج منها ثوبا سابغا خفيا لها، لم يغنها أى غناء ما قد تلبسه على مرأى من الناس من ثوب الصلاح و التعبد و التقوى.

و فى الوقت نفسه – حسب المفهوم الواضح – فإن القلب الذى سيطرت عليه نوازع الكبر أو الضغائن و الأحقاد أعجز من أن يمد الطاعات و العبادات الظاهرة بشريان العبودية لله تعالى.

و إذا انقطعت روافد العبودية مما بين قلب المسلم و ظاهر طاعته، لم تعد فيها أى قدرة على تقريب صاحبها إلى الله جل جلاله ، و لم يبق فيها أى وقاية تحجزه عن مطارح الدنيا و منزلقات الشياطين و الأهواء.(٢٥)

و كما أنه من الضرورى أن يتوافر فى التكليف الخلقى للإسلام اليسر و القدرة على الفعل و القيام بالعمل عن حب و رغبة و نية مخلصة صادقة ، كذلك يجب أن يصدر الأمر عن إرادة حرة لا عن قهر و جبر ... كما أنه من الواجب أن يكون ممتدا لكل الآخرين و ليس محصورا فى أهل أو قريب أو أصحاب علاقة خاصة أو مرتبطا بمصلحة متبادلة.

و من البديهي أن رحمة المرء بنفسه و بأهله و بماله عمل طيب، و هى أوجب من رحمته بالغرباء لكن قيمتها الخلقية باهتة ، ذلك

لأن الغيرية فيها فيزيائية شكلية ، أعنى أن الأهل (غير) فيزيائيا و جسديا فقط لكنهم وجدانيا و اجتماعيا ليسوا (غيرا) بالمعنى الحق للكلمة.

فالفضيلة الخلقية إذن مشروطة بالغيرية – أى باتجاه الفعل إلى تحقيق خير الآخرين ممن ليسوا من الأهل.

و فى هذا الشرط تناقض الأخلاق الإسلامية الأخلاق النفعية الأوربية الحديثة و المعاصرة التى اعتبرت الغيرية قاعدة مشئومة.

إن الفعل الإنساني قد يتجه الى الله ، فيكون عبادة بحتة، كرمى الجمار. و قد يستهدف منفعة صاحبه الخاصة، كالعمل و التجارة، و قد يستهدف خيرا لآخرين ، تقربا إلى الله ، كالرحمة و العفو و الصدق . و هذه هى الفضيلة الخلقية.(٢٦)

أثر التربية الأخلاقية الإسلامية فى بناء الفرد

اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بعلاقة الفرد بالمجتمع ، و قد شبه الإسلام المجتمع بالجسد الواحد ، كما أنه دعا الأفراد إلى الارتباط الوثيق بالجماعة و العمل للمصلحة العامة، فقد ورد فى الحديث الشريف: "من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة

الإسلام من عنقه .. فقالوا : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعون حقنا و يسألون حقهم؟ فقال: اسمعوا و أطيعوا ، فإنما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم".(٢٧)

و هذا الأمر الجازم بالطاعة فى هذه الحالة إنما يهدف الإسلام منه إلى الحفاظ على الجماعة و إبعادها - ما أمكن - عن التمزق. و قد كانت نظرة الإسلام فى ربط الفرد بالجماعة ، و فى دفع الفرد الى العمل من أجل المصلحة العامة أكثر دقة و شمولا من كل النظريات و الأديان . و لهذا لم تظهر فى التاريخ أخوة مترابطة مؤثرة على نفسها مثل أخوة الأنصار و المهاجرين !!!

و كان من أثر هذه التربية الأخلاقية الاجتماعية للفرد المسلم أن تميز المجتمع الإسلامي بروح الحب و الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الأخوة الإنسانية التى لا تفرق فى المعاملة و لا فى القضاء و الحكم بين غنى و فقير، و أسود و أبيض و حاكم و محكوم ، فكلهم سواسية فى الإنسانية، وفى العبودية لله الواحد الأحد، و إنما الأفضلية الوحيدة عن طريق التربية الأخلاقية الاجتماعية غير المباشرة : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (الحجرات: ١٣) ، و قوله تعالى: "لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم" (الحجرات : ١٢) .

كما تسود فى هذا المجتمع الوحدة فى داخل الأفراد بين ميولهم ، و الوحدة بين عقيدة الأفراد ، لأنهم يؤمنون بإله واحد و يتجهون إليه كلية، ثم يسيرون فى اتجاه واحد و فى طريق واحد . و الوحدة عن طريق الوعى الكامل بترابط المصالح المادية و المعنوية و الاجتماعية و الإنسانية لدرجة أن كل فرد فى المجتمع ينظر إلى نفسه على أنه عضو متصل بجسم المجتمع، كما ينظر المجتمع إلى كل فرد من أفراده على أنه عضو متصل بجسده، و من ثم ينظر الفرد إلى أن حياته مرهونة بحياة الجماعة [٢٨]. و نتيجة إيمان الفرد المسلم بأن النظام الاجتماعي الذى يخضع له إنما صدر عن الله سبحانه و تعالى و ليس عن هيئة ذات مصلحة خاصة أو ميول خاصة فإنه يتعلق بهذا النظام، و يتعبد بالالتزام به و الخضوع له، و من ثم تسود كل فرد من أفراد المجتمع روح التعلق بالجماعة و عدم القيام بأى عمل من شأنه أن يضر بالمجتمع ، بل إنه ليبذل نفسه أو ماله من أجله إن اقتضت الضرورة ذلك....[٢٩] قال تعالى فى القرآن الكريم : "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما و أسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا" (سورة الإنسان / الدهر : ٩). إن الالتزام الأخلاقى - عند ما يغرس فى الفرد - من شأنه تكوين روح الخير فى الفرد فيأتى سلوكه

إسلاميا بطريقة تلقائية، و يأتى نفوره من الانحراف و أهله بطريقة عفوية أيضا.

كما أن هذه التربية الإسلامية الأخلاقية - و هى أهم ما حرص الرسول عليه على أساس العقيدة فى مكة - من شأنها إيجاد شعور بالمسئولية نحو الإنسانية كلها ، و إيجاد موقف مبدئي ضد الشر و أهله فى إطار الإمكان البشري، و فى ظل هذه التربية لن يوجد مسلم يدعى أنه إذا سلك سلوكا غير أخلاقى إنما يضر نفسه فقط، إذ ليس هناك سلوك أخلاقي يقتصر ضرره على الفاعل فحسب، حتى تلك الأفعال التى يدعى أنها يقتصر ضررها على الذات الفاعلة إذا كان ذلك ضارا. و لنضرب لذلك مثلا بالرجل السكير... فالسكير لا يستطيع الاحتجاج بأنه يحقق لنفسه ضربا من المنفعة و أنه لا يضر بذلك أحدا لكن إذا علمنا أضرار المسكرات و ما ينتج عنها من الأمراض العصبية و العقلية و غيرها، و كيف أنها تؤثر على ذرية السكير، ثم تكون سببا للحوادث ، و سببا لارتكاب الجرائم.. عندئذ نعلم أن عمله هذا ضار على نفسه و على ذريته و على المجتمع أيضا.

و لهذا كان الرسول عليه السلام دقيقا عندما شبه المجتمع بجسم واحد فقال : "مثل المؤمنين فى توادهم و تراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر

و الحمى" [رواه مسلم]. و شبهه مرة أخرى بالبناء فقال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" [رواه مسلم].

و قد أحاط الإسلام الفرد المسلم بسياج من الأخلاق يمتد إلى سائر شئون الحياة بحيث يصح لنا أن نقول: إنه مع كل أمر شرعي يوجد أمر أخلاقي يعطيه المعنى الإنساني الذى يرتفع به عن مستوى التكليف البحت، و يشيع فى جوانبه الحب و الإحسان و الإخلاص ...و حتى العبادات الإسلامية التى تمثل أبجديات الإسلام من صلاة و زكاة و صيام و حج ، فإن لها أخلاقها و آدابها التى ترتفع بها عن مجرد الأداء القانوني ، و توفر للعبادة و للسلوك عنصرى الضمير و الروح .

و ثمة كتب كثيرة – مجملة و مفصلة – تتبعت أدب المسلم و أخلاقه فى شتى أعمال اليوم و الليلة، وفى سائر المعاملات مع الآخرين.... و قد تحدثت هذه الكتب عن أدب المسلم مع الله تعالى ، و مع المسجد ، و مع الناس حين يستأذن فى دخول بيوتهم، و فى السلام عليهم و فى مجالستهم، و فى ضيافته لهم أو ضيافتهم له ، و فى حديثه معهم فى اللقاءات العادية المعيشية، أو فى لقاءات العلم والتلاوة و الذكر و الفقه، و فى المزاح و الطعام و الشراب و السفر و زيارة المريض و تشييع جنازة الميت ، و قيادة السيارة ، و المشى أو الجلوس فى الطريق،

و آداب الزفاف و الزواج و العلاقة مع الزوجة أو مع الأولاد أو الآباء ،أو مع الجيران...

فى كل هذه المساحة - و فى غيرها - يحيط الإسلام المسلم بسياج من الأوامر الشرعية و الآداب الخلقية... فالشرع عمود الإيمان ، و الأخلاق عمود الإحسان... و بين هذين الشاطئين يتحرك المسلم مزودا بالعقيدة الصحيحة التى تكفل له السعادة و النجاة.

و من مجموع الأفراد المسلمين الملتزمين بالشريعة و الأخلاق ، و المؤمنين بعقيدة صحيحة يتكون المجتمع الأخلاقي الصالح القادر على إنجاز الحضارة الصالحة اللائقة بإنسانية الإنسان .

أثر الأخلاق الإسلامية

فى بناء المجتمع

يشكل الأفراد المواد التى يبنى بها المجتمع عبر نسيج من العلاقات التى تحتفظ للفرد بذاته و كيانه، و تجعله - فى الوقت نفسه - عضوا متألقا منسجما مع بقية أعضاء المجتمع.

و لا يستطيع مجتمع معين أن يؤدى وظيفته التاريخية و نشاطه المشترك دون أن توجد فيه شبكة العلاقات التى تؤلف عناصره النفسية و الزمنية.

و كل علاقة هى فى جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي و الدستور الجمالي الخاص بالمجتمع. و بالتالى تعتبر القيمة الخلقية عنصرا جوهريا فى النشاط المشترك الذى يتم بفضل وجود شبكة العلاقات الاجتماعية (٣٠) التى تمثل صمام الأمان و الروح الماسكة لكيان المجتمع. و كلما حدث إخلال بالقانون الخلقي فى مجتمع معين حدث تمزق فى شبكة العلاقات التى تتيح له أن يصنع تاريخه.(٣١)

و لا يوجد فى المجتمع نشاط عام أو خاص لا تسنده و تزكيه الأخلاق. و عندما قامت الرأسمالية على أساس غير أخلاقي، فإنها ولدت الاستعمار الحديث الذى ذاقت البشرية من هوله الكثير، و كان أشأم مولود لها هو المادية الجدلية البغيضة.

و مع انحسار موجة الإلحاد "العلمي" فى العالم، و وصول المرض الشيوعي الى أقصى ما يستطيعه .. سقطت الشيوعية.... و لكن الجسم الرأسمالي ما زال فى حاجة إلى الروح و الأخلاق!! و أمام عجز المسلمين المشين عن تقديم نموذج المجتمع الأخلاقي الذى يملك زمام أمره و يعيش على إنتاجه، و يوازن بين الأخذ و العطاء و المادة و الروح و الواجبات و الحقوق ... و أمام هذا العجز انحسرت الأخلاق فى المجتمعات الحديثة ، و أصبحت شبكة العلاقات مجرد نسيج يحكم القانون و المنفعة المتبادلة.

و كيف تصعد البشرية الى المستوى الأخلاقي الذى يسمو على المستوى القانوني و هى لا تجد من يدفعها ، بل تجد المسلمين قد سقطوا فى هاوية تضييع القانون السماوي و الأخلاقي أيضا، و قدموا نموذجا اجتماعيا رديئا، و تجد أحوالها فى ظل انحلالها الأخلاقي الأوروبي أفضل تنظيما و إبداعا من هؤلاء المسلمين الذين قال رسولهم (عليه الصلاة و السلام) : "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا" (٣٢) و وصفه الله بقوله : "و إنك لعلى خلق عظيم" (القلم : ٤).

و الإنسان – بطبيعته – مجبول على السهولة و اتباع المنحدر إذا لم تكن وراءه قوة دافعة إلى أعلى « فلا اقتحم العقبة » (سورة البلد : ١١)... إنها قوة من عقيدة و أخلاق تحفزه لهذا الاقتحام الذى قد يعنى التضحية بالمال أو بالنفس أو بهما معا.

إن الحضارة الأوروبية قد تقدمت اعتمادا على القانون، و قد ظلت تحقق تقدما فى مجالات التقدم المادي و التنظيمي ، مثلما يتقدم صاروخ انفصل عن مدار توجيهه ، و هو فى تقدمه مندفع لا يبصر ذاته...

و علم القانون الغربي لا يعدو أن يكون إفرازا للظواهر الاجتماعية، فهو محصلة جمع الوقائع الاجتماعية مصاغة فى بنود قانونية ، و هو يعالج سلوك الأفراد و الجماعات إزاء نظام

من القواعد خلفته ضرورات الوجود، و كأن الرعية موافقة عليه، و غالبا ما يحافظ عليه بمجموعة من الإجراءات القهرية.

أما قاعدة السلوك عند المسلم فهى على العكس من ذلك ، إنها الإرادة الإلهية المعبر عنها فى القرآن والتى تفسرها رسالة محمد النبوية.

و هنا تبرز الحاجة إلى ملاحظتين :

الأولى : أن تنظيمات الإسلام الشرعية "المحددة و غير القابلة للنقاش بالتأكيد" تتعدى بشكل واسع وضعية المعتقد الضيقة لأنها تبدو متفتحة و منشرحة بمشاعر الإخاء و العدالة.

و **الملاحظة الثانية :** أن الوحى كان بلا ريب الأساس الأولي بين الأفراد و العلاقات بين الزمر الاجتماعية. و لا تميز فى العقيدة الإسلامية بين الموجب القانوني و الواجب الخلقي، و هذا الجمع المحكم بين القانون و الخلق يؤكد قوة النظام منذ البداية[٣٣] و يحصن المجتمع – عند التطبيق – تحصينا كاملا فى المستوى الذى يطيقه البشر!

و لئن كانت الأخلاق مطلقة و ثابتة و لا تختلف من دين لدين إلا فى بعض وسائل التضييق، بحيث إننا نجد الوصايا العشر مكررة و معروفة فى الأديان كلها.. لكن القرآن أضاف – على صعيد الفضائل الفردية – مجموعة حقيقية من قواعد الأخلاق و الآداب شكلت الحضارة الإسلامية و طبعتها بطابعها. فالتهذيب

و التربية الصالحة و العادات الحميدة و الصدق و الإخلاص هى أسس الألفة التى كان لابد من أن تحيل جماعة المؤمنين إلى أخوة عريضة. و واجب الفرد فى هذا المنظور سابق على حقه، و إقامة مجتمع عادل و شريف من صلب التعاليم الإسلامية.

و فى المجتمع الإسلامي تصبح الفضيلة الاجتماعية الأساسية، و هى قاعدة السلوك الأخلاقى للمسلم، جماعية أكثر مما هى بين فرد و آخر، و هذه - لعمرى - خصيصة النظام الإسلامي الجوهرية. فالقرآن والسنة و الفقه تلح كلها على ضرورة تدعيم الروابط التى تشد أفراد المجتمع بعضهم الى بعض وتوثيقها.

و من المناسب فى هذا الصدد أن نحسب حسابا حقيقيا للتمييز الذى يقيمه الإسلام بين (الإنسان كإنسان) و (الإنسان الجماعي)، و أن نحتفظ مع ذلك فى أذهاننا بأنه إذا كان فى الإسلام فصل واضح بين الإنسان كإنسان و بين الإنسان الجماعي ، فإن ذلك لا يقلل من عمق تماسك هاتين الحقيقتين ، نظرا لأن الجماعة مظهر من مظاهر الإنسان، و أن المجتمع - على العكس من ذلك - عبارة عن أفراد متعددين، و ينتج عن هذا الترابط أو التقابل - أن كل ما يتم لمصلحة الجماعة... ذو قيمة روحية بالنسبة إلى الفرد و بالعكس.

و ثمة مَيزة أساسية بالنسبة لعلاقة المجتمع الإسلامي بأخلاق الإسلام : فمن الجلى أنه لما كان بين يدى المسلم تنزيل كامل

عليه أن يتعلم منه، فإنه سوف يحاول أن يحسن مسلكه الخلقي لا بالبحث عن حقائق جديدة، و إنما عن طريق التأمل فى الإسلام، و الالتزام وقت الممارسة بالفضائل التقليدية ومحاكاة الأفاضل ممن سبقوه أو من الذين يعيش إلى جانبهم، و تمثل الصلة بحياة النبى و صحابته شاهدا خاصا فى هذا الصدد.

و المؤمن ملتزم فى حياته الخلقية بالتقيد بوصايا الشريعة الإلهية. و ليس هذا التقييد مجرد عمل يصدر منه بشكل آلي... إن عليه بالعكس أن يشعر أنه ملتزم به التزاما عميقا، إذ ينبغى فى الواقع ألا يكتفى بصنع المعروف ، بل أن يأمر كذلك به، و ألا يكتفى بأن يتجنب المنكر ، بل أن ينهى عنه أيضا. و هذا المظهر لمتميز يكسب المجتمع الإسلامي - حتى فى هذه الأيام - تلك خلفية من التقليد و المحافظة.(٣٤)

و مع ذلك يقدم الإسلام، بوصفه نظاما لحسن المخالطة و المعاشرة ، أكثر من خلق اجتماعي بالمعنى الدقيق.

إن الإسلام من حيث جوهره بالذات، و من حيث منطق نظامه ، قد بدا فور ظهوره دين المساواة من خلال الصورة التى قدمها عن الله و الكون و الإنسان . فلقد وضعت التعاليم القرآنية حدا للطبقية الاجتماعية (المتصارعة) حين جعلت آدم أصلا لجميع الناس، و الفضل الوحيد المحتمل للفرد على غيره يكمن فى تبصره و تمييزه ، أى فى تقواه.

و بما أن الإسلام قد بنى المجتمع على قاعدة العدالة و النصفة ، فإنه قد هدف على الصعيد الاقتصادي إلى استئصال الفقر من جذوره. و هو يطالب بـ (الكفاية) لكل مسلم ، بغية إشباع حاجات الفرد اليومية الأساسية.(٣٥)

و قد قدم المجتمع الإسلامي عبر التاريخ صورا رائعة من المساواة و استئصال الفقر و مساهمة الأغنياء فى المجتمع طواعية بأضعاف ما يطلب منهم الشرع.

كما قدم هذا المجتمع عن طريق الأخلاق و تطبيق الحدود الشرعية صورة من الأمن الذى يعتبر الشرط الضروري لنمو الحياة الاجتماعية و ازدهارها.

و بعض الناس الذين لا يفهمون أسرار التشريع الإسلامي يزعمون أن فى الحدود قسوة، لكنهم يتجاهلون أن الحدود وقائية و زجرية و أنها - مع الأخلاق و العقيدة - صمام الأمان لسلامة المجتمع و الحضارة ، و أن مجتمعا لا أمن فيه لا يمكن أن يكون مجتمعا إنسانيا مؤهلا للتحضر و الرقى... يقول ابن خلدون (٣٦) : "اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها و اكتسابها ، لما يرون حينئذ من أن غايتها و مصيرها انتهابها من أيديهم . و على قدر الاعتداء و نسبته يكون انقباض الرعية عن السعى فى الاكتساب . و العمران و وفوره و نفاق أسواقه إنما هو بالأعمال ... فاذا قعد الناس عن

المعاش .. كسد العمران و انقضت الأحوال ، و ابذعر الناس فى الآفاق فى طلب الرزق فخف ساكن القطر ، و خلت دياره و خربت أمصاره، و اختل باختلاله حال الدولة".

و كما يحدث التطبيق العملي للأخلاق الإسلامية الانسجام مع أوامر الله ، و ذيوع مشاعر الأمن و الإخاء و العدالة ، و إذابة الحدود بين القوانين فى صورتها المادية الجافة و بين الأخلاق فى إطارها الروحي السامى ،كذلك تحدث الأخلاق الإسلامية فى المجتمع الانسجام مع الفطرة الإنسانية، و مع السنن الاجتماعية و الكونية التى وضعها الله لمسيرة المجتمعات و الكون... و فى ظل هذا تقف الأخلاق الإسلامية – وحدها – الأخلاق الأقدر على إحكام نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية ، بحيث تصبح فاعليتها أقوى من كل النوازع الفردية التى تمزق نسيج المجتمع.

و من هذه السنن الأخلاقية الإسلامية ما هو (عام) يؤصل الخير بجمع أنواعه و البر بكل ألوانه. و من القوانين الأخلاقية ما هو (خاص) بخلق معين أو بفضيلة محددة.(٣٧)

فمن السنن الأخلاقية العامة نجد – على سبيل المثال – تلك القواعد الأخلاقية العامة :

- "قل لا يستوى الخبيث و الطيب و لو أعجبك كثرة الخبيث" (المائدة : ١٠٠)

- "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد : ١١)
- "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا، لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون" (الأعراف : ٩٦)
- "ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله" (الفاطر : ٤٣)

و من السنن الأخلاقية الخاصة (حول الرحمة) نجد النصوص التالية:

- "من لا يرحم لا يرحم" (٣٨)
- "إنما تنصر هذه الأمة بضعفائها ، بدعواتهم و صلاتهم و إخلاصهم" (٣٩)
- "إن كنتم ترجون رحمتى فارحموا خلقى"(٤٠)
- ."من أحب أن يبسط له فى رزقه، و ينسأ له فى أثره، فليصل رحمه"(٤١)

و حول العدل:

- "إنه لا يفلح الظالمون" (الأنعام : ٢١)
- "و سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم و تبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال"(إبراهيم : ٤٥)

و حول الصبر :

- "إنه من يتق و يصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين" (يوسف : ٩٠)

و حول الرفق:

- "إن الله رفيق ، يحب الرفق، و يعطى علىالرفق ما لا يعطى على العنف و ما لا يعطى على ما سواه" (٤٢)

- " من يحرم الرفق يحرم الخير" (٤٢)

و حول الحياء :

- "الحياء لا يأتى إلا بخير" (٤٤) "ما كان الحياء فى شئ إلا زانه، و لا كان الفحش فى شئ إلا شانه"(٤٥).

و حول الصلة القوية بين الإيمان أو النفاق من جانب، و بين الصدق و الوفاء و الأمانة و العفو من جانب آخر، يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم:

"أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، و من كانت فيه خلة منهن، كانت فيه خلة من نفاق ، حتى يدعها : إذا حدث كذب و إذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف، و إذا خاصم فجر" ، غير أن فى حديث سفيان: "و إن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق" (٤٦).

و حول صلة الأرحام يقول النبى صلى الله عليه سلم :

" من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه،
و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليصل رحمه،
و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو
ليصمت " (٤٧).

- و عن أبى هريرة أن رجلا قال :

يا رسول الله : إن لى قرابة أصلهم و يقطعون،
و أحسن إليهم و يسيئون إلي ، و أحلم عنهم
و يجهلون علي فقال: لئن كنت كما قلت ، فكأنما
تسفهم المل ، و لا يزال معك من الله ظهير عليهم.
ما دمت على ذلك ".

و حول الوالدين : يقول سبحانه :

"و وصينا الإنسان بوالديه حسنا و إن جاهداك
لتشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، إلي
مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون" (سورة لقمان :
١٤-١٥).

و حول الرحمة بالأطفال يرد ذلك الأثر العظيم ، فعن أبى هريرة
رضى الله عنه قال:

"قبل رسول الله صلى الله عليه و سلم الحسن بن
علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا ، فقال

الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداء
فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال:
من لا يرحم لا يرحم".(٤٨)

- و قال أبو قتادة : خرج علينا النبى صلى الله
عليه و سلم و أمامه بنت أبى العاص على عاتقه
فصلى، فإذا ركع وضعها ، و إذا رفع رفعها.(٤٩)

و فى الرحمة بالحيوان ترد آثار كثيرة منها ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت
فيها النار، لا هى أطعمتها و سقتها إذ حبستها، و لا
هى تركتها تأكل من حشاش الأرض".(٥٠)

ومن خلال هذا التتبع لبعض الفضائل التى تغرسها الأخلاق الإسلامية فى المجتمع ، وهى مجرد نماذج محدودة ، نستطيع القول: إن الإسلام يبنى المجتمع على الأخلاق إلى جانب التشريع و العقيدة . و كما أن العقيدة و الشريعة عبادة فكذلك الأخلاق عبادة. و قد قدمت الحضارة الإسلامية صورا رائعة فى الحب و الإخاء وا لتكافل و التراحم بين الإنسان و أخيه الإنسان مسلما كان أو غير مسلم - بدرجات تتفاوت بالطبع - إذ للمسلم حقان، و لغير المسلم حق واحد، و للمسلم الرحم ثلاثة حقوق.

و لم تكن الفضائل الخلقية فى المجتمع المسلم لغاية المنفعة أو اللذة ، بل هى عبادة خالصة لله ذات إحسان و استمرار و أصالة و امتداد و إيجابية . و المجتمع الإسلامي - فى حقيقته - مجتمع أخلاق، ورسالته رسالة شاملة تقدم نموذجا للإنسان الذى يحسن صلته بالله، و يقدر الله حق قدره، و يتعاون مع أخيه الإنسان، و يتعامل مع الكون بود و حب حيوانا كان أو جمادا... إنها كلها تسبح الله، و كلها مظاهر لإبداع الخالق العظيم.

لقد قدمت سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم الأخلاقية مع صحابته و زوجاته و أعدائه و محاربيه أروع نموذج عرفته البشرية - أو يمكن أن تعرفه - للنسيج الأخلاقي المحكم المتعانق الخيوط، كأنما ينطلق فى كل الأخلاق و المعاملات من حقيقة أخلاقية واحدة.

و عبر التاريخ الإسلامي - و حتى اليوم - قدمت المجتمعات الإسلامية على تفاوت فى الدرجات، وعلى مرور بعض فترات الانحراف، وعلى خلل فى أكثر الأحايين فى بعض الشرائح الفوقية... قدمت أفضل ما يمكن تقديمه من سمو أخلاقي فى النطاق البشري الممكن !! و حتى مع وجود تخلف مادى وعلمي فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة فإنها مازالت الأرقى و الأزكى فى أخلاقها ، سواء فى علاقة الرجل بالمرأة، أو الترابط الأسري، أو عطف الوالد على ولده، و الولد على أبيه،

و العطف على الأرحام و الجيران و إخوان العقيدة، و الصدق مع الله والشعور بالآخرة...

فإذا أضيفت إلى هذه المجتمعات الجوانب التنظيمية و العملية و أسباب القوة المادية و العقلية ، أمكن أن تقدم هذه المجتمعات - كما قدمت من قبل - المجتمع المثالي اللائق بالإنسان فى العصر الحديث.

هوامش الموضوع -:

١ - محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق فى القرآن ط ١٤٠٥/٦ دار البحوث العلمية ، الكويت ص ى - د (مقدمة)

٢ - المرجع السابق ص ى - هـ

٣ - أبو اليزيد العجمى: الأخلاق بين العقل و النقل ص ٢١ دار الثقافة العربية القاهرة ١٩٨٨

٤ - سليمان الخطيب ، الأخلاق ص ٢١ القاهرة ١٤٠٩

٥ - الأخلاق بين العقل و النقل (مرجع سابق) ص ٣٣ -٣٤

٦ - الروم : ٣٠

٧ - رواه البيهقي و الدارمي

٨ - نقلا عن محمد عبدالله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ص ٢٦.

٩ - الديلمى ، مسند الفردوس، صحيح من طريق أم سلمة، ذكره السيوطي فى الجامع الصغير ١٧/١

١٠ – دراز : دستور الأخلاق ص ٢٧

١١ – المرجع السابق ص ٢٩

١٢ – المرجع السابق ص ٣٢-٣٣

١٣ – المرجع السابق ص ٣٣-٣٤

١٤ – مالك بن نبى: مشكلة الثقافة ص ٧٦ – إصدار ندوة مالك بن نبي بيروت ١٩٧٩م

١٥ – المرجع السابق ص ٧٨

١٦ – محمد قطب: فى النفس و المجتمع ص ٢٢ (ط ٤ : ١٣٩٩) دار الشروق بمصر.

١٧ – بتصرف عن: أبو اليزيد العجمي: الأخلاق بين النقل و العقل ص ٩٨

١٨ – دراز: دستور الأخلاق ص ٦٣

١٩ – صحيح البخارى ، كتاب فضائل القرآن

٢٠ – الموافقات لأبى إسحاق الشاطبي ٢/٩٣ ط . التجارية

٢١ – دراز / دستور الأخلاق ص ٨٧

٢٢ – البخارى: كتاب المظالم – باب ١٠ ، و كتاب الرقاق، باب القصاص . و انظر دراز ٢٥٢

٢٣ – رواه ابن ماجه

٢٤ – د/ أحمد عبدالرحمن ، الفضائل الخلقية فى الإسلام ص ٤٢ دار الوفاء مصر الطبعة الأولى ١٤٠٩

٢٥ – محمد سعيد رمضان البوطى: باطن الإثم ص ٢٠ طبعة ٢ مكتبة الفارابي دمشق

٢٦ – د/ أحمد عبدالرحمن : المرجع السابق ص ٥٤

٢٧ - نقلا عن : التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ٣٠٨/٥
جمع الشيخ منصور ناصف : مطبعة الحلبى مصر.
٢٨ - مقداد يالجن : التربية الأخلاقية الإسلامية ص ١٥٤ ط : ١
مكتبة الخانجى بمصر ١٩٧٧
٢٩ - المرجع السابق (بتصرف) ١٥٥
٣٠ - مالك بن نبى : ميلاد مجتمع ص ٤٥ طبع دار الفكر ١٩٧٤
بيروت.
٣١ - المرجع السابق ٤٩
٣٢ - رواه الترمذي
٣٣ - مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ص ١٨-١٩ دار الآداب
بيروت ط ١(١٩٨٠)
٣٤ - المرجع السابق : ص ٦٥
٣٥ - المرجع السابق ٦٦-٦٧
٣٦ - مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٠ طبعة مصر ١٩٢٠م
٣٧ - محمد ربيع جوهري : أخلاقنا ص ٢٨ (بتصرف) مكتبة المسلم
العصرية - مصر
٣٨ - رواه البخاري
٣٩ - أخرجه مسلم
٤٠ - كنز العمال ١٦٩/٢
٤١ - أخرجه مسلم فى كتاب البر و الصلة
٤٢ - رواه مسلم
٤٣ - رواه مسلم
٤٤ - رواه مسلم

٤٥ – رواه البخاري فى الأدب المفرد

٤٦ – رواه مسلم

٤٧ – رواه البخاري

٤٨ – رواه البخاري

٤٩ – رواه البخاري

٥٠ – رواه مسلم

و أخيرا

الحركات الإسلامية المعاصرة

و ضرورة العمل الحضاري

من حقنا أن نشير إلى أن كل الحركات التى حاولت تجاهل الإسلام أو التنكر له أو خفض رايته وإعلاء رايات أخرى وطنية أو قومية أو حزبية كانت حركات مشبوهة تنتمى الى خارج الأمة ، و لم تنبثق من داخله...

فالتراب الإسلامى و البيئة الإسلامية من طنجة إلى جاكرتا تتنفس الإسلام و تعيشه حياة اجتماعية وروحية و فكرية حتى و لو انحرفت عن تعاليمه فى التطبيق فى جانب من الجوانب ، أو وقع الانحراف فى شريحة من الشرائح... فوقية كانت هذه الشريحة أو تحتية!!

و خلال الأربعة عشر قرنا المنصرمة من عصر الإسلام فى التاريخ كان الإسلام - العقيدة و الأخلاق والحضارة - قادرا دائما على مواجهة التحديات و الواقع ، و على إنبات المصلحين الذين يتعهدون الأرض و الإنسان بالدواء و الإفاقة حتى يتمكن من الانتصار على عوامل الهزيمة الطارئة ، و الإقلاع من جديد

بمفاهيم أصيلة جديدة تحيى الثوابت و تزيل عنها تراكمات التاريخ ، و تهضم الجديد الذى يفرضه تطور الزمان ، و تطور العقل فى الزمان!!

و على العكس من حركة التاريخ الأوربى كان جميع المصلحين المخلصين فى تاريخ الإسلام من زعماء الإسلام و دعاته و مفكريه - بل و عاشقيه - و لم يقع قط أن وجد مجدد مسلم ملتزم أن الإسلام يكبل حركته، أو يدفعه إلى الاستسلام للعوامل الطارئة أو للجحود...

- و لم لا؟

- أ ليس الإسلام حضارة خاتمة تملك الصلاحية الدائمة لمواجهة كل تطور فى العقل و الزمان.

- إنه لم يكن يوما حبيس مؤسسة منحرفة أو حبيس فكرة مظلمة تبغضه فى الدنيا و فى وسائل بقائه من زواج أو تجارة أو زراعة أو صباغة أو علم أو عمل نافع تتوافر له الصلاحية و الصلاح ..

- فلم لا ينطلق المجدد المسلم من دينه إذن ؟ !

- و لماذا لا تعتدل المعادلة فى وعيه فيكسب الدنيا و الآخرة معا؟ !

- و لماذا ينشق على دين هذه طبيعته ؟ !

– و هل هناك داع ليكون المسلم وطنيا غيورا على وطنه و على بنى وطنه أن يتنكر للإسلام و يعلى راية الوطنية على رايته ؟

– و لماذا لا يكسب الاثنين معا و يفوز بالدنيا و الآخرة و يجعل من جهده لإصلاح وطنه جهدا فى الوقت نفسه لإعلاء راية دينه؟ !

– أليس وطنه بعض الأرض التى تخفق راية الإسلام فوقها ؟ !

– أليست حماية هذه الأرض حماية لبعض أرض الإسلام ؟ !

– و لماذا يجعل القومي قومه ندا للإسلام؟! أليسوا بعض أقوام المسلمين ؟ فلماذا يعارض الجزء الكل ؟ وهل فى الإسلام ما يبغض فى الأقوام، و هو الدين الذى يأمر بحماية الأرحام و رعايتهم و يجعل صلتهم من أفضل القربات إلى الله ؟ !

– و لماذا لا يكون ولاؤنا لأقوامنا بتربيتهم و بإيقافهم عند حدود العدل و بالأخذ علىأيديهم حتى يسيروا مستقيمين مبصرين فوق القضبان الصحيحة ؟

– و لماذا يكون التعصب لقومنا أعمى فى الحق و فى الباطل على سواء؟ ! و لماذا لا نجعل الوقوف مع قومنا و الأخذ بأيديهم أمرا من أمور الإسلام، و جزءا من مجموع الأجزاء الواجبة ، و ثغرة من الثغور التى نجاهد فيها دون أن نفتعل بينها و بين الإسلام عداء لا أصل له.. و لماذا لا نفوز بالإسلام

و الرحم معا، و نمزج بين أرحامنا و إسلامنا و بين بقية الثغور الإسلامية ؟ !

- إن الضمير المسلم و الوعى الإسلامى كانا منسجمين تماما مع الحقيقة الإسلامية و مفردات الولاء الأخرى. و لم يقع قط - إلا فى مراحل الهوان و التخلف - و من قبيل الشذوذ و الانحراف - أن وجد الإنسان المسلم نفسه مسوقا إلى خيارات فاصلة بين وطنه و قومه و دينه... و الخصيصة الكبرى للقيم الإسلامية هى أن منظومتها تجمع بين مفردات كثير من العناصر التى تبدو لدى بعض الأيديولوجيات متعارضة ، بينما هى فى منظومة القيم الإسلامية ذات ترتيب محدد ، و نسب محددة ، و هى - فى محصلتها الأخيرة - متفاعلة و متكاملة و منسجمة !!

• • •

و من هنا كان إفرازا غير طبيعى ، و كان نبتا لا يتساوق مع التراب الإسلامي ، بل كان استجلابا لثمار ليس لها جذور ، و لا تسمح التربة بإنباتها... كان كل ذلك هو التعبير الصحيح عن ذلك النقل الحرفى للدعوات الوطنية و القومية التى ظهرت ، بل و سيطرت فكريا و عمليا، لبعض الوقت ، فى عالمنا العربي و الإسلامي.

و من المؤسف أن تأتى هذه الدعوات بكل مفاهيمها اللاإسلامية التى تنسجم مع التربة التى أفرزتها والتى قامت بتصديرها ، بل

و بالوقوف وراء دعاتها بالتشجيع و الإبراز و شتى وسائل التمكين والدعاية.. تأتي و تنتشر و تحكم دولا ، و كأن هؤلاء المسلمين بالجنس و الوراثة الذين نقلوا إلينا هذه المذاهب قد فرغوا تماما من المعرفة بالإسلام ، بل قدم لهم إسلام مشوه نسج من بعض عصور التخلف، و من بعض سلوكيات الأفراد الشاذين حكاما كانوا أو محكومين ...

و لم يحاول قط هؤلاء الذين تعاقد الاستعمار و كنيسته معهم لغرس هذه الأفكار فى التربة الإسلامية أن يعرفوا الإسلام من أصوله ، و لا من خلال منظور محايد يضع القيم فى إطارها البشري و فى مسيرتها العامة و فى تعبيراتها الصحيحة و صورها السائدة.

و ما ينطبق على الدعوات العنصرية الوطنية و القومية التى تم مذهبتها و تكييفها أيديولوجيا لتصبح بديلا للإسلام... ما ينطبق على هذه الدعوات ينطبق كذلك على المذهبيات المادية و الفردية الأخرى التى انتشرت على الساحة العربية و الإسلامية خلال القرن الرابع عشر المنصرم من الهجرة (العشرين للميلاد) .....

و لم تسقط فى عالمنا العربي إلا مع سقوطها فى العالم كله، و إن كان من الحق أن نسجل - تاريخيا - أن العالم الإسلامي بصفة إجمالية صمد فى وجه هذه المذهبيات كما لم يصمد العالم النصراني و العالم الوثني، بل كان صمود المسلمين فى أى بلد

شيوعي أو اشتراكي أو قومي أقوى من صمود الطوائف الأخرى التى تعيش فى البلد نفسه ، و ذلك على الرغم من الضغوط الكثيفة التى كانت توجه إليهم بصفة خاصة !!

* * *

كانت الحركات الإسلامية - إذن - هى التعبير الصحيح عن التربية الإسلامية ، و عن الفطرة، و عن التاريخ ، و وعائه الحضاري . و لم تكن هذه الحركات بالنسبة للعالم الإسلامي "**إحدى الحركات الفكرية و السياسية الهامة و المؤثرة**" كما أنها لم تكن "**أهم التوجهات المؤثرة فى المجتمع العربى والإسلامي**" إلا من باب التجوز فى التعبير .. فالمقارنة بين الصحيح و الزيف و الطبيعي و الصناعي مقارنة نظرية و فكرية ، لكن طريقيهما مختلفان أهمية، ومختلفان تأثيرا، ومختلفان انتماء و ولاء ونتائج!!

و لئن درج بعض المنظرين إلى طرح الإقلاع الإسلامي الحضاري هذا الطرح النظري الذى يتعامل مع المشروع الحضاري الإسلامي بمنظور أو "كاميرا" [مصغرة] و مع المشروعات الأخرى اللامنتمية بمنظور أو "كاميرا" [مكبرة] فإننا - من رؤيتنا الحضارية الإسلامية - نتحفظ على هؤلاء المنظرين ، و نؤمن بأن الإقلاع الحضاري الإسلامي هو الطريق الذى لا طريق سواه ، و أن الطرق الأخرى إنما تساق لتبديد الطاقة و صرف الأبصار عن الطريق الصحيح، و تأخير

الإقلاع أطول فترة ممكنة ... فهى - إذن - ليست طرقا أخرى، و إنما هى محاولات تضليل عن الطريق الصحيح الذى يجمع كل أبعاد المعادلة الحضارية، و يقدم البديل الحضاري ، لا للعرب و لا للمسلمين وحدهم، و إنما للبشرية التائهة و المخدوعة كلها..

* * *

و كان أول خطأ وقعت فيه الشرائح التى تصدرت الأمة فكرا و تنظيما من خلال عدد من التنظيمات و الاجتهادات أنها نسيت حقيقتها ، و لم تفهم طبيعة دورها، و قد نجح خصومها المزودون بـ"تكتيك" الغرب و مخططاته فى أن يجعلوها تبدو فى موقع رد الفعل أو الحل فى الأزمات الكبيرة... و دائما يكون لرد الفعل الحاد نسبة الخطأ التى يقع فيها الفعل المضاد ... و كما لا يجوز للمعلم و لا للطبيب ، و لا للوالد المربى أن يكون رد فعله مساويا للفعل الذى يقع فيه التلميذ أو المريض أو الابن، فكذلك كان من الواجب على العاملين فى الحركات الإسلامية أن لا يستفزوا إلى معارك آنية، و إلى خصومات مرحلية، و أن يفقهوا - من خلال وعى و تربية كافيين - أن بناء المشروع الحضاري الإسلامي ، والإقلاع بأمة من وهدة حضارية تردت فيها بعوامل من داخلها و استغلال من خصومها ، أمران ليسا من السهولة بمكان ، و لا يصلح معهما الاستقلال الجزئى السياسي أو

الاقتصادي دون توطئة وتمهيد، و دون رعاية كافية للبذور ، و تقليل بقدر الطاقة من الأعشاب الضارة التى يغرسها الخصوم الأقوياء المزودون بعلوم التخطيط و الأنثروبولوجيا و الحضارة و السياسة و الإعلام !!

إن معرفة الماهية و الرسالة و الأهداف معرفة ضرورية و أساسية لمن يريدون بناء مشروع حضاري ، و حمل رسالة عظمى تطمع إلى إنقاذ الأمة المؤمنة ، لتنقذ بها البشرية التائهة عن حقيقتها و رسالتها الحقة !!

و لم يكن الأمر صعبا على الحركات الإسلامية أن تتعلم ، و أن تفقه، فرصيدها النبوي و الراشدي و الحضاري الممتد، و النماذج الحضارية البشرية الأخرى، كلها يمكن أن توضع بين أيديها، و ذلك شريطة أن يكون كل مسلم يريد الانتماء لهذا المشروع مستعدا أن يتتلمذ، و أن يتلقى، و أن يحاور بالحسنى، و أن ينقى قلبه و عقله من الاستعلاء الآثم ، و الظنون القاتلة ، و آثار العنصريات و الطبقيات و الأثرة !!

و فى الفقه الحضاري القرآني و النبوي زاد وفير لمن أراد أن يذكّر و أن ينسجم مع سنن الله فى التغيير و بناء النفوس و العقول و الحضارات !!

لكن بعض المنتسبين إلى هذه الحركات ظنوا لبعدهم عن الفقه الحضاري ، و عن الإدراك الصحيح لطبيعة رسالتهم، أن

الإقلاع الحضاري يشبه إقلاع الطائرة، و أن الإنسان يشبه "الكمبيوتر" و هو وهم كبير أدى إلى كثير من الانتكاسات ، و سالت بسببه كثير من الدماء، و أهدرت كثير من الطاقات!!

فالحضارة ليست طائرة و لا مشروعا إداريا أو صناعيا، بل هى تمهيد للتربة ، و تنقية لها، و غرس للبذور الملائمة و رعاية لها و تعهد بالغذاء و الماء ، و انتظار صبور للنتائج و الثمار الصالحة!!

و الإنسان كائن عاقل حر مريد مؤثر ، و ليس مجرد حاسوب تملؤه بالمعلومات ليندفع بها فى أسرع وقت كلما طلبت منه ذلك!!

وما زالت الحركات الإسلامية – للأسف – لا تريد أن تقف هذه الوقفة المتأنية مع نفسها، و مع طبيعة البناء الحضاري، و الإمكانات ، و التحديات المحيطة، و الوسائل العملية و الميسورة !!

و قد نتج عن هذا الخطأ أن العمل الإسلامي يغلب عليه الفردية و العفوية و العاطفية ، و أن هذه الحركات الإسلامية لم تحقق نجاحا ملحوظا فى بناء مؤسسات ثابتة مرتبطة بعموم المجتمع.. و حتى المؤسسات التى نجحت فى بنائها كانت تمتد بها ، و كأنها لا تدرك حجم الأعداء المتربصين ، كما أنها – كذلك – استخدمت وسائل قفز أكبر من حجمها و إمكاناتها، فسقطت فى

حفر كثيرة، بل إن بعضها (لبلاهته) كان يضخم نفسه أمام عدوه الأكبر منه بمراحل ، و كأنه يستعدى هذا العدو، و يحذره منه ، و يناديه بلسان الحال (بل و المقال) ليقضى عليه؛ فإنه خطر سوف يقترب منه و يقضى على مصالحه !!

* * *

و مع غياب الرؤية الحضارية ، و ما تقتضيها من أناة و صبر و تخطيط و تعميق للجذور فى إطار التربية و تعميق الصلة بالله ، واستحداث البدائل التى تفرض نفسها أدبيا وفنيا وعلميا ...

مع هذا الغياب للرؤية الحضارية حصرت كثير من الحركات نفسها فى بعد واحد من أبعاد التغيير و هو البعد السياسى ، بينما حصرت قليل من الحركات نفسها فى بعد واحد آخر و هو العمل الفردي، عن طريق ملاحقة الفرد فى سلوكياته الجزئية و الفرعية و الشكلية و الروحية دون أن تتسع الرؤية لقيمتى العلم و العمل اللذين هما من أهم مقومات الانبعاث الحضاري !!

و قد عجزت كثير من الحركات عن إدراك الفروق بين مؤهلات الآخرة و الدنيا، فبينما تنتظم مؤهلات الآخرة المؤهلات الدنيوية الصالحة ، فإن المؤهلات الدنيوية قد لا تكون موصولة بمؤهلات الآخرة، بل قد يفوز فيها الكافر إذا استكمل شروطها، على أساس

أن هذه المؤهلات الدنيوية امتحان مشترك بين كل الناس .. أما الآخرة فهى للمتقين الصالحين وحدهم.

ففى العلم الدنيوي المعاش، و فى العمل الدنيوي القائم على هذا العلم يتساوى كل للناس ، و بالتالى قد ينجح الياباني الوثني أو البوذي أو اللاديني و يفشل المسلم الذى يلتزم بالشعائر الإسلامية التزاما ظاهرا و رسميا..!!

لقد أتقن الياباني مؤهلات الدنيا، بينما خدع المسلم نفسه فظن أن التزامه ببعض شعائر الإسلام يغنيه عن إتقان هذه المؤهلات، فسقط فى حفرة التبعية و الاستهلاك !!

و قد كان من أوجب واجبات الحركات الإسلامية - بلا استثناء - وهى تسعى لبعث الأمة و الإقلاع الحضاري أن تجمع فى عناق و تآزر و فاعلية متبادلة بين مؤهلات الدنيا و عبادات الإسلام و قواعده المعاملاتية التى لا تخرج فى نهاية مقاصدها الشرعية عن أن تكون وقودا و توجيها لمؤهلات الدنيا فى مسارها الصحيح، حتى تحقق للإنسان المسلم - و به - الحضارة الصحيحة المتميزة و الخصوصية !!

* * *

و كان من تداعيات الرؤية المحدودة - غير الحضارية - لكثير من الحركات الإسلامية أنها فشلت فى التعامل مع النظم السياسية الحاكمة !!

وقد نجحت كثير من النظم الحاكمة – بتوجيه من القوى المضادة الخارجية التى ترفض المشروع الحضاري الإسلامي كله فى أن تستدرج هذه الحركات الإسلامية إلى معارك ليس فى طوقها الدخول فيها .!!

و لأن الحركات الإسلامية لم تبذل جهدا كافيا فى مجال إصلاح السياسة الشرعية و تبصير الراعى ومساعديه. بل اتخذت من الطبقة الحاكمة موقفا مبدئيا قوامه الرفض و الإدانة فى غالب الأحيان، فقد ساءت العلاقة بين الطرفين، و نجح الأعداء من صليبيين و يهود و علمانيين فى الوقيعة الدائمة بين الحكام و الحركات الإسلامية و تخويف النظم الحاكمة من هذه الحركات، و إشاعة مفاهيم التطرف والعنف و الرفض حولها .. كما نجح هؤلاء فى إخفاء أهدافهم و جرائمهم، و لصق كثير منها بهذه الحركات الإسلامية !!

إننا نعى حجم المكائد الخارجية التى تدبر ضد النهضة ذات الطابع الإسلامي بعامة لأنها المشروع الحضاري الوحيد الصحيح، و لهذا فهى تحظى بأكبر قدر من مكائد الأعداء و تربصاتهم ، بل ومساوماتهم السياسية، كما أننا نعى أن كثيرا من الحكام – ولا سيما فى عصر الهيمنة الاشتراكية – يتلقون تقارير الأعداء و نصائحهم و تدخلاتهم فى الشئون الداخلية بالقبول و الرضا و الخضوع الذليل، مع أن أبجديات العقل

الموضوعي تقتضى الشك فى نصائحهم و تقاريرهم ، بل إن الكرامة تقتضى رفض هذه التقارير .. و أما الإسلام فيوجب هذا الرفض، لأن القبول بتوجيهاتهم نوع من الولاء و التبعية و الذل و الخيانة للإسلام و للأمة الإسلامية... إننا نعى - بوضوح - كل هذا ؛ لكن هذا لا يعفى الحركات الإسلامية من مسئوليتها فى التقصير فى هذا الجانب ، فهى لم تبذل جهدا كافيا فى تبصير الحكام و الاحتكاك بهم و برجالهم احتكاكا مباشرا، بل تركتهم يواجهون تقارير الأعداء وحدهم دون مساعدة على المقاومة ، بل إن بعض الحركات الإسلامية بالغت فى هذا الأمر، فأدانت كل من يتصل بالحكام ، حتى من العلماء الأعلام الثقات ، و جعلت من علامات الإخلاص البعد عن الحكام و المخالفة لهم ، حتى و لو كانوا فى موقف ينسجم مع الحقائق الإسلامية، فكأن مخالفة الحكام أصبح هدفا فى حد ذاته!!

و لو أن الحركات الإسلامية اختلفت وسائلها و أساليبها دون أن يعقب هذا الاختلاف صراع بين بعضها البعض، و إدانة لبعضها البعض، و فتن كقطع الليل تقوم على الغيبة و النميمة ، بل و محاولة الإيذاء و التشويه و التجريح و الرمى بأسوأ التهم... لو أنها لم تسقط إلى هذا المنحدر - فى بعض فصائلها بالطبع - لأمكن تحويل هذا الاختلاف إلى مستوى إيجابي تتعاون فيه

الإيقاعات المختلفة ، والوسائل المتباينة ، لكى تحقق فى النهاية أهدافا مشتركة !!

لكن ذلك لم يقع ، بل الذى وقع هو العكس، فبددت كثير من الطاقات، ومشى العمل الإسلامي يهدم بعضه بعضه....

و لولا ثقة كثير من العاملين للإسلام فيما عند الله ، و فى أنهم على الحق، و فى أن ضريبة الجنة غالية، و فى أن البشر لن يضروا بشرا - و لو اجتمعوا عليه - إلا بإذن الله ، و لن ينفعوه إلا بإذن الله... لولا هذا ليئس كثير من العاملين للإسلام من العمل الجماعي و الفكري و الحضاري - بتأثير إخوانهم أولا - و لركنوا إلى ظل شجرة و بعض الغنم يعبدون الله و هم مستريحو النفس و الضمير ؛ فقد أصبح كل ذى رأى معجبا برأيه ، و ساد الجهال و أصبحوا فى موقع الفتوى .... ففى كل مدرسة و قرية و جماعة مفتون ... يرفضون من خالفهم و يدينونه و يحاربونه ...

* * *

لكن ذلك لا يعنى أن السلبيات أكثر من الإيجابيات ، بل الإيجابيات التى قامت بها الحركات الإسلامية أكثر من سلبياتها... فقد أعطت الوعى الإسلامي الكثير، و قد وقفت فى وجه تيارات الشيوعية و الاشتراكية والوجودية والتغريب و هى فى قمة قوتها ، حين كانت - و ما زالت - بعض القوى الحاكمة

تقف وراء هذه التيارات و تفتح كل المجالات لأصحابها من مناصب و وسائل إعلام و أموال، بينما تمنع عن المسلمين كل الروافد المؤثرة و تضع أمامهم العراقيل . و سواء تلفعت التيارات المعادية بالرداء الوطني أو القومي أو الحداثي ، فإن الحركة الإسلامية كانت – و ما زالت – تعرف ما وراءها و من وراءها ... و كما انتصرت الحركة الإسلامية على الشيوعية و هزمتها هزيمة نكراء فى العالم الإسلامي و غيره ، فإنها سوف تعيد ترتيب بيتها الإسلامي ، و تقف الوقفة الإسلامية و الحضارية المنشودة ، لتنتصر على خطر العلمانية اللادينية الزاحف .. إن شاء الله .

المهم أن تبدأ فى تغيير النفس بالعقل و القلب حتى يتحقق وعد الله الذى لن يتخلف: "هو الذى أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا" (الفتح : ٢٨)

صدق الله العظيم

فهرس المحتويات

رقم الإيداع : ٩٦٠١/١٩٩٣م

I . S . B . N : 977 - 255 - 074 - 1

مطابع الوفاء ـ المنصورة



هـذا الكتـاب

* يتحـدث المنافقـون ـ العلمـانيون ـ كـثيرا فى عـصرنا عن الـثابت والمتحـول ، ويريدون أن يثبتوا من خـلال كتاباتهم ومحـاضراتهم وندواتهم أنه لا ثابت فى هذه الحياة ، فكل شىء متغير .

فلا عـقيـدة ثابتـةً .. ولا شـريعـة ثابتة .. ولا أخـلاق ثابتـة، بمعنى أنه لا وحى ، ولا روح ، ولا ضـمـير ، ولا لغة قرآنيـة ثابتة ، وأن كل المفاهيم نسبية !!

* والحياة البـشـرية بلا ثوابت ـ تحـدد معـالم الطريق وتلـتف حولهـا المتحولات والمتغيرات ـ غابة يعيش فيهـا وحوش ، والعقل وحده لا يصلح للتشريع ولا لقيادة الحياة، والواقع خير شاهد ، وما تخبط العالم الغربى بخافٍ عنا وإن حاول بعض المنافقين أن يقولوا عكس ذلك .

* والمؤلف ـ وفقـه الله ـ قد جلى هذه القـضية بمزيد من التـوضيح ، فوضع الوحى فى مكانه والعقل فى مكانه ، وقـدم لشباب الصحوة الإسـلاميـة مفـاهيم منضـبطة عن عدد من الـثوابت الضـرورية التى تحتاج إلى تعميق جذورها فى الأعماق وعدم المساومة عليها

* **ودار الصـحوة** يسـرها أن تقـدم هذا الكتـاب لشـبـاب الإسلامية وقرائها الكرام ، والله من وراء القصد .